روح القرآن الكريم

تفسير سُورة النُّور وأحكامها

بقلم

عفيف عبد الفتّاح طبّاره

A
297.122
R933r
[pt.18]

روح القرآن الكريم

تفسير سورة النور وأحكامها

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبّاره

إهداء عن روح المرحوم الحاج
ابراهيم سعيد كريدية

LAU LIBRARY - BEIRUT
04 DEC 2003
RECEIVED

Gift of Kreidieh

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تحذير وإنذار

كل من يقوم بتزوير هذا الكتاب ويشترك بطبعه أو تغليفه أو بيع النسخ المزورة يلاحق بأقصى العقوبة المنصوص عليها في القوانين ويتحمل كل ضرر ناجم عن ذلك.

إن الوكيل الحصري المعتمد لتوزيع وبيع هذا الكتاب في جميع أقطار العالم:

دار العلم للملايين

الطبعة الثالثة

شباط/فبراير ٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لفضيلة الأستاذ

الشيخ شريف شكر

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبعد:

إن سُوَر القرآن الكريم أنزلها الله معجزة في أسلوبها، معجزة في أحكامها ومواعظها وقصصها، وغير ذلك من المواضيع التي تطرّق إليها القرآن، والتي بمجموعها تؤهل المؤمن لنيل رضا الرحمن، وتبلغه جنة الرضوان.

وسورة النور من السُّوَر المدنية التي اشتملت على الأحكام التي تعود بالنفع على الفرد والأسرة والمجتمع، وتلزم المؤمن والمؤمنة بضوابط خلقية، ولا ريب في أن الانضباط الخلقي ضروري للفرد المسلم كي يكون عضواً صالحاً في أسرته، ومن ثَمَّ في مجتمعه.

وأبرز أحكام سورة النور يدور حول ضبط الغريزة الجنسية من الشطط، أي الممارسة لها بغير الوجه الذي خلقت لأجله وهو عمارة الكون وبناء الأسرة الصالحة.

ولقد ضلت المدنية الحديثة في مفهوم الغريزة الجنسية ووضعتها في مستوى الحرية الشخصية، ولهذا انطلق الكثير من الناس في إشباع رغباتهم الجنسية بدون وازع من دين أو ضمير أو قانون مما جرَّ على الدول التي تدعي

الحضارة كوارث اجتماعية تتمثل بكثرة اللقطاء كثرة مذهلة، وانتشار الأمراض عن طريق العلاقات الجنسية الآثمة وفي طليعتها المرض القتّال «السيدا». كما أدت هذه الحرية الشخصية إلى كثرة الخيانات الزوجية مما أدى إلى تفكك الأُسر وانعدام المسؤولية.

ومن روائع هذه السورة أنها تصدت لهذه الإباحية القديمة على شكل محدود، والإباحية المعاصرة غير المحدودة، فشرعت العقوبات الرادعة للزناة من الجنسين، كما شرعت العقوبة الشديدة أيضاً لمن يتهم الغير بالزنا بدون دليل، وهو ما يطلق عليه اسم القذف.

وفي موضوع القذف تتحدث سورة النور عن قصة الإفك التي اتهمت بها عائشة أم المؤمنين في عفتها وطهارتها، والتي قاسى منها رسول الله وزوجه عائشة وأهلها القلق والآلام النفسية المبرحة، وكان ممن أثار هذه التهمة الباطلة كبير المنافقين عبد الله بن أُبيّ وغرضه من ذلك الإساءة إلى الإسلام في شخص رسول والطعن في عرض أقرب الناس إلى قلبه، ثم نزل الوحي الإلّهي ببراءة السيدة عائشة، وبعدها أقام رسول الله عقوبة القذف على المفترين.

وقصة الإفك يعرضها المؤلف كما روتها السيدة عائشة ويشرحها شرحاً وافياً، معقباً عليها بالعِبَر المستفادة منها.

وفي السورة أيضاً أحكام اللعان وهو يحصل عند اتهام الزوج زوجته بالزنا وضبطها بالجرم المشهود وتعذر وجود الشهود الأربعة، واللعان مخرج للزوج من الولد الذي يأتي عن طريق السفاح وتلصقه به زوجته الزانية زوراً وبهتاناً.

وفي سبيل الحد والتخفيف من طغيان الشهوة الجنسية دعت هذه

السورة المؤمنين والمؤمنات إلى غض أبصارهم وعدم إدامة النظر إلى بعضهم بعضاً، لأن النظر هو المدخل لإثارة الغريزة الجنسية، كما حددت للمرأة المسلمة لباسها وزينتها أمام الغرباء عنها أو أمام أقاربها بما يكفل طهارتها وعفتها.

ولحفظ الشبان والشابات العزّاب من الزنا دعت هذه السورة أولياءهم إلى المساعدة على تزويجهم، كما دعت الشباب إلى الالتزام بمبدأ العفة عند عدم القدرة على نفقات الزواج انتظاراً حتى يغنيهم الله من فضله.

ودعت هذه السورة السادة إلى تزويج من يصلح من عبيدهم للزواج والنهي عن إجبار إمائهم على الزنا للتكسب من ذلك ، ثم تمضي السورة فتقدم لنا بعض الأحكام في تحرير الإرقاء حيث كان الرق سائداً آنذاك.

ومن روعة هذه السورة أنها تقدم لنا أحكاماً في آداب الاستئذان عند دخولهم بيوت الغير وتأمر بإلقاء التحية عليهم، وكذلك تبين آداب الاستئذان داخل بيوتهم بالنسبة لمماليكهم وأطفالهم في أوقات معلومة.

ومن المواضيع التي تطرقت إليها هذه السورة بيان بعض معجزات القرآن التي تشهد أن القرآن وحي إلّهي وأن محمداً ﷺ رسول الله حقاً، ومن هذه المعجزات ما وعد الله المسلمين بخلافة الأرض والسيادة على الأمم المجاورة وقد تحقق هذا الوعد بعد فترة قصيرة من نزول الآية التي تبشر المؤمنين بذلك.

وهذه السورة تتحدث أيضاً عن مظاهر قدرة الله في الطبيعة. من ذلك تكوين السحاب ووصفه بالجبال وهو ما يشاهد في الطبقات العليا من الجو، ووصف عوارض البرق مما كشفته الدراسات الحديثة في العلوم الطبيعية وكذلك وصف المحيطات أصدق وصف، والكلام عن المخلوقات الحية

وتكوينها مما كشفه علم الأحياء، هذه الأمور لم تكن معلومة في عهد محمد ﷺ وَذِكْرُ هذه الأمور العلمية دليل على صدق نبوته، مما يفتح آفاقاً جديدة أمام أتباع الأديان الأخرى إلى دراسة الإسلام دراسة مجردة واعتناقه عن علم ويقين.

وهناك مواضيع أخرى تطرقت إليها هذه السورة يضيق بنا الكلام عنها ويراها القارىء في هذا الكتاب.

هذه لمحة سريعة عن بعض محتويات هذه السورة التي عالجها الأستاذ الصديق عفيف طباره بأسلوبه السهل الواضح ودراسته لها بالعمق، وتبويبه المشوّق الذي لا يمل القارىء من مطالعتها.

وأخيراً نذكر أنه رُوي في فضائل هذه السورة حديثاً نصه: «علموا نساءكم سورة النور»[١] وذلك لأن هذه السورة تنير للمرأة الطريق السليم للمحافظة على عفتها وكرامتها، ويجنبها من العثار والسقوط في مخالب الشر وبراثن السوء.

جزى الله المؤلف كل خير وأعانه الله لإتمام تفسير القرآن كله ووفقنا الله جميعاً للعمل بشريعته.

---

(١) نص هذا الحديث: «علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور» وقد أخرجه سعيد بن منصور في «سننه»، والبيهقي في «شعب الإيمان» وهو مُرسل عن مجاهد وعند البيهقي موقوف على عمر. وقد رمز السيوطي في «الجامع الصغير» إلى ضعفه وأيده على ذلك المناوي في «الفيض» و«التيسير». وقد يُقال إن الحديث المشار إليه حسن بالنظر إلى خلاف المحدّثين في تضعيف بعض رواته. وهذا الحديث ذكره الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور».

سُورَةُ النُّور

مدنيـــة وآيـــاتها ٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾
الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ
عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

ايضـــاح و دروس

يستهل الله تعالى هذه السورة بوجوب الأخذ بأحكامها:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون﴾

فالله سبحانه يقول: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ والسورة[١] هي كل مجموعة من الآيات القرآنية وردت بترتيب مُعيّن مُجمع عليه مبتدئة بالبسملة وهي تشتمل على آيات أقلها ثلاث.

---

(١) السورة في لغة العرب تعني تفوق الموصوف بصفات الكمال على نظائره، كما تعني الرفعة والمنزلة، ولهذا سمّي كل نص في القرآن من البسملة إلى آخر آية فيه سورة لإجلالها ولكمالها لفظاً ومعنى وتفوقها على غيرها من كلام الناس.

أنزل الله هذه السورة وحياً منه على رسوله محمد ﷺ بواسطة الملك جبريل أو بدونه.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أوْحى الله هذه السورة وفرض أحكامها على المؤمنين، وكلمة: فرضناها توحي في الأخذ بأحكامها بقوة وشدة بلا تهاون ولا تقاعس، لأن فيها حياة المجتمع وسلامته من الشرور والفساد.

﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ والآيات جمع آية وهي كل جملة في القرآن بين فاصلتين، علامة على ما تضمنته من أحكام وآداب ونحوها، ومعنى بيّنات: أي واضحات الفهم لا لُبس فيها ولا غموض. وتكرار لفظ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ لكمال العناية بإنزال هذه السورة لما اشتملت عليه من الأحكام ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون﴾ أي لتتذكروا هذه الآيات وتستحضروها في أذهانكم وتعملوا بموجبها وتتعظوا بها.

حدُّ الزنا

ثم يأتي أول حكم في هذه السورة وهو المتعلق بحدّ[1] الزاني والزانية:

(١) الحد وجمعه حدود هو العقوبات على ذنوب يغلب فيها حق الله على حقوق العباد لذلك حدّد الإسلام هذه العقوبات بنص في القرآن أو السنة. والحدود التي تستوجب العقوبة هي: الزنا ـ قذف المحصنات ـ البغي ـ السرقة ـ قطع الطرق ـ شرب الخمر ـ الارتداد عن الإسلام.

وهناك عقوبات تسمى القصاص عند اقتراف جريمة القتل أو الجروح وهي تغلب فيها حقوق العباد لأن للمجني عليه الحق في أن يعفو عن الجاني.

وهناك عقوبات أخرى تسمى التعزير وذلك عند بعض التعديات على الغير والتي لم يأتِ نص في تحديد العقوبة لها بل ترك ذلك للحاكم أو القاضي في تحديد العقوبة لها.

﴿الزَّانِيَةُ والزَّاني فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ المؤمِنينَ[1]﴾ (٢).

والزنا هو اسم لوطء الرجل امرأة في فرجها من غير نكاح (أي عقد زواج) ولا شبهة نكاح بمطاوعتها.

فالقرآن قدم ذكر الزانية على الزاني ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّاني﴾ وذلك مراعاة للأصل في الفعل، فالمرأة هي المادة التي نشأت منها الجناية لأنها لو لم تُطمع الرجل وتغريه بها وتمكنه من نفسها لم يقاربها الرجل، فلما كانت السبب في ذلك بدأ بذكرها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الزنا في المرأة أظهر للعار من أجل ما يترتب على ذلك من الحمل والولادة، ولأن المرأة إذا زنت ذهب حياؤها فسارت في درب الفجور وحرّضت الرجال على الزنا بها بما تملك من فتنة وإغراء.

وعقوبة الزانية والزاني هي: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ والجلد هو الضرب بالسوط، ويشترط أن يكون السوط وسطاً، أي لا شديداً ولا ليناً. وقد اختلف العلماء في المواضع التي يُضرب بها فقيل لا تضرب إلاّ

(١) هذه الآية تنسخ حُكْمَ ما جاء قبلها في سورة النساء: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً. واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً﴾ آية ١٦.

فكان حد المرأة إذا زنت الحبس في البيت حتى تموت والأذى بالتعيير والتوبيخ، وكان حد الرجل إذا زنى: الأذى بالتعيير والتوبيخ وبالضرب بالنعال ثم نسخ هذا الحكم عن غير المحصن بما جاء في سورة النور بجلد الزانيين ونسخ عن المحصن بالرجم، وذلك لما روي عن النبي ﷺ: خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم.

في الظهر، وقيل سائر الجسد، ويُتقى الوجه والفرج، ويجرد الرجل من ثيابه حيث ينبغي أن يُضرب ويترك على المرأة ما يسترها دون ما يقيها الضرب، والجلد يكون معتدلاً بحيث لا يتجاوز ألم الضرب إلى اللحم والعظام إذ الغاية منه الزجر والردع والتشهير وليس القتل ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ والرأفة هي الشفقة والرحمة، ومعنى النهي عن الرأفة هنا هو عدم تعطيل الحكم بترك الضرب مثلاً، أو أن يكتفي الضارب بشيء من الجلدات المائة، أو تخفيف الضرب من غير ايجاع ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي في شرع الله وتنفيذ أحكامه. والملفت للنظر أن القرآن يعبِّر عن قانونه الجنائي والتشريعي بدين الله مما يفيد أن الصلاة والزكاة والصوم والحج ليست وحدها الدين بل يتبعها تنفيذ شريعة الله التي منها عقوبة الزنا[١] ﴿إِن كُنتُم تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنتم تؤمنون بالله والبعث يوم القيامة حيث تجازون على أعمالكم فلا تعطلوا تنفيذ العقوبة على الزناة[٢] ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشهود: الحضور. والمراد بالعذاب عقاب الجَلْد وما يترتب عليه من ألم، أي ليشهد تنفيذ العقوبة بهما جماعة من المؤمنين، وحضور جماعة من المؤمنين فيه تشهير وفضيحة للزناة، ويستحب أن لا يقل عدد المؤمنين الذين يشهدون هذه العقوبة عن أربعة.

(١) ألحق الفقهاء بالزنا: اللواط والمساحقة وإتيان البهائم، أما اللواط فالإتيان في دبر الرجال، والمساحقة تكون بين النساء. وللفقهاء في اللواط اجتهادات فقهية، فقال أبو حنيفة لا عقوبة محددة بل يُعزّر ويُؤدب بالعقوبة التي يرتئيها القاضي. وقال مالك والشافعي يُرجم الفاعل والمفعول به سواء أُحصنا بالزواج أو لم يُحصنا لقول الرسول: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وقال غيرهم من العلماء عقوبة اللواط كعقوبة الزنا. أما عقوبة المساحقة فهي التعزير. أما عقوبة إتيان البهائم فقد رُوي عن رسول الله قوله: «ومن وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة» رواه ابن ماجه.

(٢) روي عن رسول الله ﷺ قوله: «إقامة حدٍّ من حدود الله خير من مطر أربعين ليلة في بلاد الله عز وجل» رواه ابن ماجه.

فالقرآن ذكر عقوبة الجلد وهي خاصة بالزناة العُزّاب، أما المحصن (أي المتزوج) فعقوبته الرجم حتى الموت سواء للرجل أو للمرأة لأن انغماسهما في الزنا بعد التجربة الطاهرة التي مارساها بالزواج يدل على فساد فطرتهما بحيث لا يجدي معهما زجر ولا تأديب بعقوبة الجلد، وقد ثبت الرجم بالسنة النبوية وبإجماع الأئمة.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أَنْزَلَ اللَّهُ آية الرجم[١]، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أُحصن من الرجال والنساء إذا قامت البيِّنة، أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف[٢].

وروي عن رسول الله ﷺ قوله: «لا يحل دم رجل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلّا بإحدى ثلاث: الثيب[٣] الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[٤].

وروي عن أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن ابني كان عسيفاً (أي أجيراً) في أهل هذا (يريد رجلاً بعينه) فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم، وإني سألت رجالاً من أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة جلدة وتغريب[٥] عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال

(١) آية الرجم هي ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة﴾ ثم نسخ لفظها وبقي حكمها.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) الثيب: من ليس ببكر ويقال امرأة ثيب ورجل ثيب إذا تزوجا زواجاً فيه دخول.
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه.
(٥) تغريب: نفي.

النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: المائة شاة والخادم ردٌّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة (جلدة) وتغريب عام، ثم قال لرجل: «يا أُنَيْس اغدُ على امرأة هذا فسلها فإن اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها»(١).

شروط الرجم

وشروط الإحصان الموجبة للحد (أي لعقوبة الرجم) ستة: الإسلام، الحرية(٢)، العقل(٣)، البلوغ(٤)، التزوج بعقد صحيح، الدخول بالمرأة بعد زواجه منها.

والإسلام احتاط في تنفيذ عقوبة الزنا، فلا يوقعها إلّا في الحالات الثابتة التي لا شبهة فيها، إما بشهادة أربعة شهود عدول يُقرّون برؤية الجماع رؤية حقيقية (كالميل في المكحلة) أو اعترافاً من الزاني الراغب في تطهير نفسه بإقامة الحد عليه، وجميع حالات الرجم التي حصلت على عهد رسول الله ﷺ كانت باعتراف الجاني.

والإسلام يدرأ الحد (أي يمنع حدوث العقوبة) ما كان هناك مخرج منه لقول رسول الله ﷺ: «ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»(٥).

(١) رواه البخاري.
(٢) الحرية: أي أن يكون الجاني حرًّا غير رقيق.
(٣) العقل شرط للعقوبة فالمجنون لا يخاطب بالشريعة لفقدان عقله.
(٤) البلوغ يكون بالاحتلام، فالصبي لا تنفّذ عليه العقوبة.
(٥) رواه الترمذي.

والزاني المحصن إذا مات في عقوبة الرجم يعامل معاملة موتى المسلمين فيغسَّل ويُكفَّن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين ويُدعى له بالمغفرة، ولا يجوز لأحد أن يذكره بسوء كشتم ولعن ونحوه.

وإليكم هذه الحادثة التي حصلت في عهد رسول الله والتي تعطينا درساً في درء الحدود عن الجاني والدعاء له بالمغفرة بعد إقامة الحد عليه:

جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: طهرني، فقال ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله: طهرني، فقال رسول الله: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله: طهرني فقال النبي مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله: فيمَ أطهرك فقال من الزنا، فسأل رسول الله: أبه جنون؟ فأُخبر أنه ليس بمجنون فقال: أشرب الخمر؟ فقام رجل فاستنكهه(١) فلم يجد منه ريح خمر. فقال رسول الله: أزنيت فقال: نعم فأمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز أنه جاء إلى النبي فوضع يده في يده ثم قال اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال استغفروا لماعز بن مالك... لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم(٢)»(٣).

والحامل لا ينفذ عليها عقوبة الجلد إلّا بعد أن تضع حملها، فقد رُوي

(١) فاستنكهه: شم رائحة فمه.
(٢) لوسعتهم: لشملتهم.
(٣) رواه مسلم.

عن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة(١) أتت النبي وهي حُبلى من الزنا (وكانت محصنة) فقالت يا نبي الله أصبت حدًّا(٢) فأقمه عليّ فدعا النبي ﷺ وليّها(٣) فقال أحسن إليها فإذا وضعت (أي وَلَدت) فأتني بها. ففعل فأمر بها نبّي الله فشكت(٤) عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها، فقال له عمر تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت فقال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أنها جادت بنفسها(٥) لله تعالى»(٦).

وإقامة الحد على الزاني سواء أكان محصناً أم لا هو كفارة له عن خطيئته. عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله قال وحوله عِصَابة(٧) من أصحابه «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تَعْصُوا في معروف فمن وَفَى منكم فأجْرُهُ على الله ومن أصَابَ مِنْ ذَلِكَ شيئاً فَعُوقب في الدنيا فهو كفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أصَابَ مِنْ ذَلِكَ شيئاً ثم سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وإنْ شَاءَ عَاقَبَهُ فبايْعنَاهُ على ذَلِكَ»(٨).

---

(١) جهينة: قبيلة عربية.
(٢) أصبت حدًّا: عملت ما يوجب الحد (العقوبة).
(٣) وليها: المسؤول عنها الذي قد يكون أباً أو زوجاً أو أخاً.
(٤) فشكت: شدت عليها ثيابها بحيث لا تنكشف عورتها في تقلبها عند الرجم.
(٥) جادت بنفسها: ماتت.
(٦) رواه مسلم.
(٧) عصابة: الجماعة ما بين العشرة إلى الأربعين.
(٨) رواه البخاري ومسلم.

الزِّنَا مِنْ كَبَائِرِ الإِثْم

وإن من يتأمل في مطلع هذه السورة حيث أوجبت العقوبة الزاجرة لجريمة الزنا، والنهي عن الرأفة في شأن الزناة، يرى أن ذلك يدل على أن الزنا من كبائر الإثم.

فالقرآن استهجن الزنا أشد الاستهجان فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء: ٣٢. لقد وصف الله الزنا بأنه فاحشة، والفاحشة ما اشتد قبحه من الذنوب، كما وصفه بأنه طريق السوء فبئس من يسلكه، والملاحظ في هذه الآية أن الله لم ينهَ عن الزنا فقط بل نهى عن الاقتراب من الزنا وذلك بتجنب دواعيه وأسبابه من نظر ولمس وما شابه ذلك.

كما أن الله أوعد الزناة بالعذاب الشديد يوم القيامة في حال إصرارهم وعدم توبتهم ﴿... ولا يزنون. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أثاماً. يُضَاعفْ لَهُ العَذَابُ يوْمَ القِيَامةِ وَيَخْلُدْ فيه مُهاناً﴾ (الفرقان: ٦٨، ٦٩).

والرسول محمد ﷺ حذَّر من الزنا بقوله:

«يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال: ثلاثاً في الدنيا وثلاثاً في الآخرة، أما التي في الدنيا: فَيُذْهِبُ البهاء(١)، ويورث الفقر، وينقص العمر(٢)؛ وأما التي في الآخرة: فسخط الله، وسوء الحساب، وعذاب النار»(٣).

---

(١) يذهب البهاء: يحرم صاحبه من صفاء النفس وجمال الروح.
(٢) ينقص العمر: بما يعنى ضياع صحة الزاني وإنهاك بدنه باللذات مما يستنفد نشاطه الحيوي ويعرضه للأمراض الزهرية والقلب والإيدز مما يجعله عرضة للموت الباكر.
(٣) ذكره السيوطي بنحوه في الجامع الكبير ورواه الخرائطي والبيهقي.

وروي عن الرسول قوله: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلّوا بأنفسهم(١) عذاب الله»(٢).

والإيمان والزنا لا يجتمعان على صعيد واحد، لأن الإيمان الحقيقي ينتج عنه شعور المؤمن بأن الله مُطّلع عليه وأنه سيحاسبه يوم القيامة على سيئاته، وهذا يحول بين المؤمن وبين عصيانه لربه، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(٣).

وقد حُكي أن رجلاً راود امرأة عن نفسها فامتنعت عليه فقال: ماذا تخشين ولا أحد يرانا سوى الكواكب؟ فقالت: فأين مكوكبها؟ فكاد يصعق وفرّ هارباً منها خائفاً من الله تعالى(٤).

---

(١) أحلوا بأنفسهم: أنزلوا بأنفسهم.
(٢) رواه الطبراني والحاكم.
(٣) رواه البخاري.
(٤) إن إدراك المؤمن والمؤمنة المحصنين بالزواج بأنه في حال زناهما قد يصدر عليهما الحكم الإلّهي بالموت رجماً، أو الجلد عند عدم الإحصان، إن وضع هذا التصور أمام أعينهما لمما يردعهما عن الزنا. وفي حالة أن تضطرم الشهوة الجامحة تحت تأثير إغراء ما وتهمّ النفس بمعصية الله سراً عليك أيها المؤمن والمؤمنة أن تهرعا إلى الصلاة طالبين من الله أن يعصمكما من الخطيئة وتستعيذا به من الشيطان الرجيم حتى تحافظا على مرضاة ربكما، وتذكرا قول الله تعالى ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

واعلموا أيها المؤمنون أن ارتياد الأماكن التي يجري فيها الرقص والغناء والتبرج الصارخ وشرب الخمور يؤدي بكم إلى الوقوع في المحرمات والمعصية، وقد حذرنا رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله: «ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه،ألا وإن حمى الله محارمه».

أضرار الزنا في العالم

والزنا أصبح في هذا العصر عند أمم الغرب من مظاهر الحرية الشخصية فلا يعاقب الزناة غير المتزوجين إذا كان فعلهما برضى منهما وبلغا سنّ الرشد. أما الزنا بالنسبة للمتزوجين فيختلف باختلاف قوانين البلدان ولا تتعدى عقوبة الزنا الحبس والتعويض المالي هذا إذا ادّعى أحدهما على الآخر وثبت عليه ذلك.

هذا التهاون والتراخي بالعقوبة بحق الزناة جرّ على أمم الغرب كوارث اجتماعية فادحة وأضراراً لا تحصى، فأبرز هذه الأضرار الناتجة عن الزنا وجود ملايين الأولاد غير الشرعيين، ووجود طفل غير شرعي هو جناية متعددة النواحي.

فهو جناية على المولود الذي لا يعرف أباه ولا أمه، وما يستتبع ذلك ما يعانيه من ألم مكبوت يصاحبه مدى عمره عندما يعلم حقيقة أمره، فعلى الرغم من نشوئه في ميتم يوفر له العناية فإن ذلك لا يوفر له السعادة والحنان اللذين يوفرهما نشوؤه في أسرة هو فرد منها يتضافر على العناية به والداه في ظل إخوة له يتبادلون الحب والسلوى، بالإضافة إلى ذلك ما ينشأ عنده من عقد نفسية قد توجهه نحو الانحراف وسلوك طريق الإجرام والحقد على المجتمع الذي يعيش فيه.

والزنا جناية على المرأة إذ قد ينشأ عن هذه العلاقة الآثمة بينها وبين الرجل الحبل وما يحمل من معاني الفضيحة لها، وقد تحتفظ المرأة بوليدها بعد أن يتركها الرجل الذي ضاجعها أو ينكر علاقته بها فيكون في ذلك ظلم فادح لها إذ يجعلها وحدها تتحمل أعباء تربية وليدها وتنشئته بدون أن يشاركها في هذا العبء الرجل الذي كان سبباً في ذلك.

والزنا جناية على الدولة إذ عليها أن توفر الأموال الطائلة في سبيل الإنفاق على هؤلاء الأطفال غير الشرعيين الذي هو في الأساس من واجبات آبائهم الذين يتحتم عليهم الإنفاق عليهم.

بالإضافة إلى ذلك ما يحصل من اختلاط الأنساب عن طريق التبني المعمول به في أنظمة الأمم الغربية وإلحاق اللقيط بعائلة لا يمتّ إليها بصلة ويحمل اسمها، وكذلك ما ينشأ عن الزنا من أخطار القتل للزاني على يد الزوج عندما يراه في فراشه.

وأخيراً نذكر أن من أضرار الزنا تفشي الأمراض الجنسية كالزهري والسيلان ومرض الإيدز، وهذه الأمراض تنتقل من المصاب بها إلى صحيح الجسم عند الاتصال الجنسي، وقد انتشرت هذه الأمراض انتشاراً مريعاً في العالم بسبب تفشي الزنا.

السِّينما والتلفزيون مَصْدَران للشرور

والزنا في نهاية القرن العشرين أصبح له دعاة يرغبون فيه علانية ويزينونه في النفوس ويعرضون ما فيه من ملذات وشهوات عن طريق الأفلام السينمائية والشاشة الصغيرة المرئية (التلفزيون) فيراها كل أفراد الأسرة، فهم يمهدون لذلك بإظهار محاسن المرأة وتبرجها الصارخ واختلائها بالرجل الأجنبي عنها، ومراودتها له عن نفسه، أو غواية الرجل لها، واشتراكهما في احتساء الخمرة، والقبلات الطويلة، مما ينتهي بهما إلى سرير واحد وهم عراة الأجسام يمارسون فيه الفاحشة على مرأى الأنظار.

كما تعرض هذه الأفلام صوراً من الخيانة الزوجية كأنها شيء طبيعي غير مستهجن، وأخبار الذين يحترفون الزنا ومغامراتهم.

هذه المشاهد جميعها تحرض الشباب والشابات على الرذيلة، وتضرم الشهوة في نفوسهم وتكون لهم قدوة سوء، وبالأخص أنهم يشاهدون هذه المشاهد المخزية يوميًّا تقريباً في التلفزيون في قنواته المتعددة والنفس ترغب في مشاهدة كل ما يثير الغريزة الجنسية وصدق الله إذ قال ﴿إن النفس لأمَّارَةٌ بالسوء إلاّ مَا رحِمَ ربي﴾.

وبالإضافة إلى هذا، ما يعرض من مشاهد الرقص الشرقي الذي تلوي فيه الراقصات أجسادهن وتحرك مواضع الفتنة منها وهن شبه عاريات بطريقة تلهب الشهوة الجنسية في نفوس المشاهدين وتجعلهم أسرى هذا الانفعال الذي يمكن تحت تأثيره أن يفعلوا أموراً شائنة. ولقد أصبح لهذا الرقص المثير للغرائز الجنسية دعاة ومشجعون، والغريب أن هذا الرقص كان محصوراً في (البارات، وعلب الليل) فأصبح يعرض في التلفزيون لتشاهده الأُسر المحافظة، ويشاهده المراهقون، فَبَدلَ أن يكون (التلفزيون) أداة تثقيف وتوجيه صالح وتسلية بريئة أصبح أداة للشرور وإثارة للغرائز الجنسية.

لذا ننصح الأهل أن يكونوا رقباء على أولادهم فلا يتركونهم يشاهدون هذه المناظر المخزية التي يترتب عليها انعكاسات سيئة على نفوسهم.

والإسلام إذ حرّم الزنا فإنه شرع أموراً وقائية منه وهي: النهي عن تبرج المرأة أمام الغرباء وارتدائها اللباس الشفاف الضيق القصير الذي يكشف عن مفاتن جسمها، كما نهى عن اختلائها بالرجل والسفر وحدها بدون محرم[1]، كما دعا المرأة والرجل إلى غض البصر بالنسبة لبعضهما البعض، بالإضافة

(١) محرم: هو الذي يحرم على المرأة أن تتزوجه كالأب والابن والأخ والعم والخال وغيرهم وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلاّ مع ذي محرم» رواه مسلم. وروي عن النبي ﷺ قوله: «لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان» رواه الترمذي.

إلى ذلك فإن الإسلام شجع على الزواج وأباح الطلاق عند استحكام النفرة بين الزوجين، وحرّم شرب الخمر[1] تحريماً قاطعاً، وسيأتي الكلام عن بعض هذه الأمور فيما بعد.

الزنا وطهارة الإيمان لا يجتمعان

ويتابع القرآن فيبين أن الزواج من الزناة محرم على المؤمنين:

﴿الزَّاني لا يَنْكِحُ[2] إلَّا زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إلَّا زَانٍ أو مُشْرِكٍ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المؤْمِنينَ﴾ (٣).

نزلت هذه الآية في بعض المؤمنين الذين استأذنوا رسول الله في نكاح نسوة كن معروفات بالزنا من أهل الشرك فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوج المرأة منهن لتنفق عليه.

ومعنى الآية: إن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والفسق لا يرغب في الزواج من الصالحات من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو امرأة مشركة، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في الزواج منها الصلحاء من الرجال بل ينفرون منها، وإنما يرغب فيها الذي هو من جنسها من الفسقة.

فالمشرك لا إيمان له يزجره عن الفواحش، والزاني يدعوه فجوره إلى الفواحش، والرجل الزاني لا تكون امرأته ـ كما هو حال بعض النساء ـ في منزلة العفة فتتشوق إلى غيره ويكون الباعث لها الانتقام منه ومقابلته بالمثل، ولذا يُقال: «عُفُّوا تَعُفَّ نِساؤكم» والرجل إذا رضي أن يتزوج زانية فقد رضي

(١) يقول النبي ﷺ: «لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر» رواه ابن ماجه. فالإنسان إذا شرب الخمر سكر ففقد عقله وانهار بذلك الضابط الأخلاقي فيه فيزني دون أن يتبصر بالعواقب السيئة التي تنشأ عن الزنا.

(٢) ينكح: نكح الرجل المرأة تزوجها بعقد الزواج، ويقال: نكح الرجل امرأته وطئها وجامعها.

عملها، والمرأة إذا تزوجت زانياً فقد رضيت عمله. ومن رضي بالزنا فهو بمنزلة الزاني، وفي الحديث النبوي: «المرء على دين خليله» وأعظم الخلة خلة الزوجين.

والزنى من المرأة يفضي إلى الاشتباه بالمولود الذي تنجبه هل هو من زوجها أو من الذي زنى بها.

فالراغب في الزواج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه فهو بهذا مؤمن، وإما أن لا يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بالزواج إلاّ مِنْ مشركة مثله.

ومن هنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أنه لا يصح عقد الزواج من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تتوب إلى الله، فإن تابت صح العقد عليها وإلاّ فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر الزاني حتى يتوب إلى الله توبة صحيحة.

ولا يفهم من الآية أنه لا يصح عقد الزواج بين الزانيين، فمن زنى بامرأة فله أن يتزوجها، فقد رُوي أن رجلاً زنى بامرأة في زمن أبي بكر فجلدهما مائة جلدة ثم زوج أحدهما من الآخر ونفاهما سنة.

ويرى الإمام مالك أنه لا يتزوجها حتى يستبرئها[1] من مائه (أي منيّه) الفاسد الذي يحصل عن طريق الزنا لأن النكاح (أي الزواج) له حرمة ومن حرمته ألاّ يُصبَّ على ماء السِّفاح؛ فيختلط الحرام بالحلال، ويمتزج ماء المهانة بماء العزة.

أما تتمة الآية **﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المؤْمِنينَ﴾** أي حرم الله نكاح البغايا على المؤمنين وحرَّم الزنا مطلقاً فحيثما زنى الرجل أو المرأة فعليهما العقوبة.

(١) الاستبراء من المرأة يكون بالامتناع عن الاتصال بها جنسيًا حتى تحيض حيضة ثم تطهر ثم يتصل زوجها بعد ذلك.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ
جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ
يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ
أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ
عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ
أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ
اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

شرح المفردات

يَرمون المحْصنَات: يتهمون النساء العفيفات بالزنا.

شهداء: شهود.

الفاسقون: الخارجون عن طاعة الله.

يرمون أزواجهم: يتهمون زوجاتهم بالزنا.

يَدْرأ عنها العذاب: يدفع عنها عقوبة الرجم.

حد القذف(١)

والتشديد في عقوبة الزنا لا يغني وحده في صيانة المجتمع من الفساد ما لم تسبقه ضمانات وقائية منها: محاربة الإشاعات الكاذبة ولجم ألسنة السوء عن إطلاق التهم الباطلة وفي هذا المنحى يقول تعالى:

والَّذينَ يَرْمُونَ(٢) المُحْصَنَاتِ(٣) ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فاجْلِدُوهُمْ ثمـانين جَلْدَةً ولا تَقْبَلُوا لَهُم شَهَادَةً أبداً وَأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿والَّذين يَرْمُونَ المحْصَنَاتِ﴾ أي والذين يشتمون المسلمات العفيفات فيتهمونهن بالزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهداءَ﴾ أي ثم لم يأتوا بإثبات على ما اتهموهن به أربعة شهود عدول يشهدون عليهن أنهم رَأَوْهن يفعلن ذلك ﴿فاجْلِدُوهُم ثَمانين جَلْدَةً﴾ فاجلدوا الذين اتهموهن بالزنا ثمانين جلدة، وهذه عقوبة جسدية لهم مقابل إيذائهم للغير ﴿ولا تَقْبَلُوا لَهُم شَهَادَةً أبداً﴾ أي وأسقطوا شهاداتهم ولا تقبلوها أبداً، وهذا الإسقاط لشهاداتهم هو عقوبة معنوية تصيب كرامتهم فلا يعتدّ بقولهم بين الناس ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُون﴾ أي الذين خالفوا أمر الله وخرجوا عن طاعته.

---

(١) القذف: اتهام المرأة بالزنا بدون دليل.

(٢) يرمون: الرمي هو الإلقاء والقذف بحجر أو سهم أو نحوهما مما يضر ويؤذى، ثم استعير للسب وتوجيه العيوب. والمراد هنا في الآية التعبير بالزنا خاصة وذلك لتقدم ذكر الزنا في الآيات السابقة، ولأنه سبحانه وتعالى ذكر المحصنات وهن العفيفات فدل على أن المراد رميها بضد العفاف وهو الزنا ويسمى (القذف) ولأن الآية اشترطت أن يكون عدد الشهود أربعة وهذا العدد غير مشروط إلاّ في الزنا.

(٣) المحصنات: أصلها في اللغة المصونات، من الحصن، وهو الموضع المنيع الذي لا يمكن الوصول إلى داخله. عُبِّر بهذا اللفظ عن العفيفات إشارة إلى أنهن منيعات عن اقتراف الفواحش.

وحكم القذف يعمّ المرأة والرجل، وإنما خص القرآن النساء بالذكر (المحصنات) لأن قذفهن يكون غالباً أكثر من الرجال وضرره عليهن وعلى أقربائهن أقسى وأشد[١].

وفي التعبير بالإحصان (أي العفة) إشارة إلى أن من قذف شخصاً معروفاً بالفسق والفجور لا يعاقب بعقوبة القذف لأن الفاسق لا كرامة له.

ثم يقول تعالى تعقيباً على آية القذف:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٥).

أي إن الذين رجعوا عما قالوا من القذف وندموا عليه من بعد ما اجترحوا ذلك الإثم وصَلُح حالهم فإن الله ساتر على هؤلاء ذنوبهم بعفوه عنهم ورحمته لهم.

ويبقى السؤال: هل تقبل شهادة القاذف بعد إقامة الحد عليه وبعد توبته؟ يقول بعض الفقهاء في ذلك: إذا تاب القاذف ـ وتوبته أن يكذب نفسه ـ وصلح حاله وندم على ما فرط منه يُردّ له اعتباره وتُقبل شهادته. وهم يرون أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِين تَابُوا﴾ يعود إلى جملة الآية كأنه قيل: ومن قذف المحصنات فاجلدوه وردوا شهادته وفسّقوه إلّا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا أنفسهم فإن الله غفور رحيم، فيصيرون بذلك غير مردودي

(١) الألفاظ الموجبة لحد القذف تنقسم إلى صريح، وكناية، وتعريض. فالصريح أن يقول لها: يا زانية أو زنيتِ وما شابه ذلك. أما الكناية فمثل أن يقول لها: يا فاسقة، يا فاجرة، يا ابنة الحرام، أو امرأتي لا ترد يد لامس، فهذا لا يكون قذفاً إلّا أن يريده القاذف مع التلفظ باليمين. أما التعريض فليس بقذف مثل قوله: أما أنا فما زنيت، وليست أمي بزانية وهذا ما ذهب إليه الإمام الشافعي والأمام أبو حنيفة، أما الإمام مالك فيرى أنه قذف يجب فيه العقوبة.

الشهادة وليسوا معتبرين من الفسقة[١].

وهناك فقهاء يقولون: إن القاذف لا تقبل شهادته بعد إقامة الحدّ عليه وإن تاب، وإنما توبته فيما بينه وبين ربه، وهم يرون أن الاستثناء في الآية ﴿إلّا الذين تابوا﴾ يعود فقط على الفاسقين، فالتوبة ترفع عن القاذف صفة الفسق ويبقى مردود الشهادة[٢].

وحكم شهادة أربعة أشخاص عدول على شخص ما بالزنا أن تكون على معاينة منهم يشهدون أنهم عاينوا الإدخال بالفعل، كالمِرْوَدِ في المكحلة، وأن تكون الشهادة من الشهود في موطن واحد[٣] على قول الإمام مالك ومتفقة في الرؤية فإن اضطربت شهادة أحد الشهود أو امتنع عن الشهادة جُلِدَ الثلاثة الآخرون حدَّ القذف، وهذا ما فعله عمر بن الخطاب في أمر المغيرة بن شُعبة حيث شهد عليه ثلاثة بالزنا وتوقفت شهادة الرابع فَجَلَد عمر الثلاثة.

وشروط القذف عند العلماء تسعة: شرطان في القاذف وهما: العقل والبلوغ. وشرطان في الشيء المقذوف به وهو أن يقذف شخصاً بوطء يلزمه فيه الحد، وهو الزنا أو اللواط، أو ينفي نسبه من أبيه. وخمسة في المقذوف وهي: العقل، والبلوغ، والإسلام، والحرية، والعفة عن الفاحشة التي رُمي بها سواء كان عفيفاً من غيرها أم لا.

واختلف الفقهاء في حد القذف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الناس، فالإمام أبو حنيفة يرى أنه من حقوق الله بمعنى أن أمر القاذف إذا

(١) هذا رأي الإمام مالك والشافعي.
(٢) هذا رأي الإمام أبي حنيفة.
(٣) يرى الشافعية عدم اشتراط هذا الشرط فإن شهدوا مجتمعين أو متفرقين فإن شهادتهم تُقبل.

وصل إلى الإمام أقام الحدَّ عليه وإن لم يطلب ذلك المقذوف.

ويرى الإمام مالك والإمام الشافعي أن حدَّ القاذف هو من حقوق الناس بمعنى أن الإمام لا يقيمه إلّا بمطالبة المقذوف ويسقط بعفوه.

فتشريع القرآن يظهر لنا سموه في مجابهة أهل السوء في إطلاق الإشاعات الكاذبة التي فيها خراب للبيوت، والطعن بأعراض الناس، ولا أشد إيلاماً للنفس من الاتهام بالزنا، ومن هنا شدد الإسلام العقوبة على من يتهمون الناس بالزنا زوراً وبهتاناً.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن من رأى بأم عينيه أحداً يزني فعليه أن يلزم السكوت ولا يفضحه بين الناس لقول رسول الله ﷺ: «ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة»(1).

أما إذا شاركه في الرؤية ثلاثة شهود فهذا معناه أن الزاني لا يتورع عن الستر وأن أمره قد استفحل شره وذاع خبره فلا بدَّ له من العقاب حتى يكون عبرة لغيره.

كما أن انتشار اتهام الأفراد بالزنا يقضي على جو الطهر في المجتمع ويجعل بعض النفوس الضعيفة الإيمان في وضع يهون عليها ارتكاب الزنا بحجة أن أكثر الناس يفعلون ذلك ولا بأس بالانجراف في تيارهم ومجاراتهم في أفعالهم. لذا كانت الحكمة بالغة في إقامة الحد على كل من يتهم آخَرَ بالزنا ويلوك في عرضه إذا لم يأتِ بأربعة شهود عدول يقرون أنهم رأوا هذا المتهم يقترف هذه الفاحشة.

---

(1) رواه الترمذي.

اللعان (عند اتهام الزوج زوجته بالزنا)

مر معنا أن جريمة الزنا تثبت بأربعة شهود، ولكن للزوج ظروفاً خاصة لا تتوفر لغيره لأن من شأنه أن يتصل بزوجته على انفراد، وفي حالات نادرة جداً قد يفاجىء زوجته بجريمة الزنا مع شخص آخر فيشق عليه إثبات ذلك بإحضار أربعة شهود، فإن سكت على هذا الأمر سكت على أمر جلل لا يتحمله، فيه امتهان لكرامته والاعتداء على حقه، وإلحاق ولد أجنبي عنه بنسبه يتوجب الإنفاق عليه ويرثه ويحمل اسمه.

لذا شرع الله حُكم اللِّعان بين الزوجين ليكون مخرجاً للزوج من هذا المأزق الذي وقع فيه، وأباح له أن يستقل بإثبات جريمة الزنا على زوجته بدون وجود الشهود الأربعة وبدون إقامة الحدّ عليه عند عدم توفر الشهود، كما أن الله شرع للزوجة مخرجاً من العقاب إذا اتهمها زوجها بالزنا.

وقبل أن نذكر الآيات القرآنية التي نزلت في هذا الصدد نذكر بعض الأحداث التي سبقت ذلك.

يروى أنه لما نزلت آية القذف ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ قال عاصم بن عدي: جعلني الله فداك يا رسول الله إن وجد رجل مع امرأته فأخبر بذلك جُلد ثمانين جلدة ورُدَّت شهادته أبداً وفُسِّق، وإن ضربه بالسيف قُتِلَ (أي قتل به قصاصاً) وإن سكت، سكت على غيظ، وإلى أن يجيء بأربعة شهداء (أي شهود) يكون قد قضى الرجل حاجته ومضى...

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال: يا رسول الله إن وجدت مع امرأتي رجلاً لا أمهله حتى آتي بأربعة شهداء، والله لأضربنه بالسيف غير مصفح عنه.

وبعد وقت قصير جاء هلال بن أمية إلى رسول الله ﷺ فقال: إني جئت

أهلي عشاء فوجدت رجلاً مع أهلي، رأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ما أتاه به (أي الخبر) وثقُل عليه جداً حتى عُرِفَ ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم إني لصادق، وما قلت إلاّ حقًّا، فإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً. واجتمعت الأنصار فقالوا: ابتلينا بما قال سعد بن معاذ، أيُجلد هلال بن أمية وتبطل شهادته في المسلمين (بسبب أنه لم يأتِ بأربعة شهود) فهمّ رسول الله بضربه (أي جلده ثمانين جلدة) فإنه لكذلك يريد أن يأمر بضربه إذ نزل الوحي الإلّهي عليه فأمسك أصحاب رسول الله عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُم وَلَمْ يَكُن لَهُم شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. وَالخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّه إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ. وَالخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦ - ٩).

وبعد نزول هذه الآيات قال رسول الله ﷺ: أبشر يا هلال فإن الله قد جعل لك فرجاً، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من الله، فقال رسول الله لأصحابه: أرسلوا إليها (أي احضروا زوجة هلال) فجاءت فلما اجتمعت بزوجها عند رسول الله قيل لها... (أي ما اتهمها به زوجها من الزنا) فكذّبت قول زوجها، فقال رسول الله: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب، فقال هلال: يا رسول الله بأبي وأمي (أي فداك أبي وأمي) لقد صَدَقْتُ وما قلت إلاّ حقًّا، فقال رسول الله لاعنوا بينهما... فتلاعنا أمام رسول الله.

ولنعد إلى تفسير الآيات، فالله سبحانه يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي والذين يتهمون زوجاتهم بالزنا فيقول لزوجته: يا زانية، أو هذا

الولد أو الحمل الذي في بطنك ليس مني ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُم شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُم﴾ أي لم يكن لهم شهود على ما رأوا إلاّ أنفسهم ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّه إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فتكون البينة على ما رأى هو أن يُحضر زوجته إلى الإمام أو القاضي المختص فيدّعي عليها بما اتهمها به من الزنا فيحلّفه الإمام أو القاضي أربع شهادات بالله وتكون هذه الشهادات في مقابلة أربعة شهود بأن يقول: أشهد بالله إني لرأيتها تزني، وما وطئتها بعد رؤيتي لها أو بعد زناها، أو يقول: ما هذا الولد أو هذا الحمل في بطنها مني، وإني لمن الصادقين في قولي هذا عليها، ويكرر هذا أربع مرَّات ﴿وَالخَامِسَةُ[1] أَنَّ لَعْنَةَ اللَّه عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ أي يقول في شهادته الخامسة: عليَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين. فإذا قال الزوج ذلك القول سقط عنه الحد (أي عقوبة القذف) وانتفى عنه الولد ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ﴾ أي تسقط عن الزوجة عقوبة الزنا وهي الرجم حتى الموت بصفتها محصنة بالزواج ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ﴾ أي تقول الزوجة: أشهد بالله إن زوجي كاذب فيما ادَّعاه عَلَيَّ وَذَكَرَ عني مما اتهمني به، وهذا الولد منه وإن كانت حاملاً تقول: وإن حملي هذا منه، وتكرّر قولها هذا أربع مرات ﴿وَالخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي تقول في شهادتها الخامسة: عليَّ غضب اللّه إن كان صادقاً فيما رماني به من الزنا.

وبتمام اللعان بين الزوجين تقع الفرقة بينهما (أي الطلاق) فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان، ولا يحل له مراجعتها أبداً، أما الولد الذي أنكر الزوج أبوته من زوجته فيقضى للزوجة ويرث أمه وترث منه ولا يُدعى لأبيه ولا

---

(١) يروى أن رسول الله قال لهلال قبل الشهادة الخامسة: يا هلال اتق الله فإن عذاب الله أشد من عذاب الناس وإنها الموجبة التي توجب عليك العذاب (أي أن الشهادة الخامسة موجبة للعذاب يوم القيامة إن كانت كاذبة) وهذا ما قاله رسول الله أيضاً لزوجة هلال.

يُرمى (أي لا يقال له ابن زنى). أما إذا أكذب الزوج نفسه بعد اتهامها بالزنا جُلِدَ ثمانين جلدة (وهي حد القذف) ولحق به الولد (أي انتسب لاسمه) ولم ترجع إليه زوجته أبداً[1].

فالحياة الزوجية تقوم على المودة والرحمة، والمودة لا تقوم إلا على الثقة بين الزوجين، وبعد الاتهام الفاضح الصادر عن الزوج لزوجته، وتكذيب كل واحد من الزوجين لصاحبه انهارت الثقة والود بينهما، لهذا أوجب الإسلام الفراق الأبدي بينهما.

ويختم الله آيات اللعان بقوله:

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيكُم وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠).

أي ولولا تفضل الله عليكم ورحمته بكم وأنه كثير قبول التوبة من عباده وحكيم في كل أفعاله لما شرع الله لكم هذه الأحكام، وجواب لولا محذوف للإيجاز تقديره: لفضحكم أو لعاجلكم بالعقوبة، فالحكمة من تشريع اللعان هو رفع عقوبة القذف عن الزوج إذا فاجأ وحده زوجته بجريمة الزنا واتهمها به، ورفع التهمة عن الزوجة إذا كان زوجها مفترياً عليها لضغينة أو سبب ما فجعل الله اللعان فاصلاً وحكماً بينهما.

---

(١) يرى الإمام أبو حنيفة أن الزوج إذا أكذب نفسه وجُلد ثمانين جلدة في حد القذف زال تحريم العقد (أي عقد الزواج) وحَلَّت له زوجته بنكاح جديد (أي عقد جديد) إذا قبلت امرأته الرجوع إليه.

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ
لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ
الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾
لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ
اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ
بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا
وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا
أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن
تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ
آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

شرح المفردات

الإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء.

تولى كبرهُ: تحمل معظم الإثم.

أفضْتُم فيه: خضتم فيه من حديث الإفك.

تَلَقَّوْنَهُ: تقبلونه ويرويه بعضكم عن بعض.

هَذَا بُهتانٌ عظيم: هذا كذب يدهش سامعه لفظاعته.

تشيع: تنتشر.

قصة الإفك

قصة الإفك تتلخص بتهمة السوء والطعن في عفة عائشة زوجة رسول الله ﷺ، وهذه التهمة الباطلة أطلقها زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيّ وردّدها بعض المسلمين، ثم نزلت براءة عائشة بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ من آيات القرآن الكريم.

وقصة الإفك اكتنفها بعض الوقائع نترك الكلام عنها لعائشة ترويها بلسانها، وقد أخذنا كلامها من روايات شتى مع بعض الاختصار، تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع[١] بين نسائه فأيتهن خرج سهمها (أي نصيبها) خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي عليهن فخرجت مع رسول الله وذلك بعد نزول آية الحجاب، فحملت في هودجي[٢] وسرنا حتى إذا فرغ رسول الله من غزوه نزل منزلاً[٣] فبات بعض الليل ثم آذن بالرحيل[٤]، فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني[٥] أقبلت إلى رحلي[٦] فلمست صدري فإذا عِقْدٌ لي من جَزْع ظَفَار[٧] قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه[٨]، وأقبل

(١) أقرع: ضرب القرعة والقرعة هي السهم والنصيب (أي سحب الأسماء بالقرعة).
(٢) الهودج: محمل له قبة يوضع على ظهر الجمل تركب فيه النساء ولا يراهن أحد.
(٣) نزل منزلاً: حل في مكان ما.
(٤) آذن بالرحيل: أي نادى بالرحيل.
(٥) قضيت شأني: الشأن الحاجة، وكان النساء إذ ذاك يقضين شأنهن في الأماكن المنخفضة البعيدة عن أعين الناس.
(٦) رحلي: الرحل ما يوضع على الجمل ليركب، أي رجعت إلى هودجها.
(٧) جزع ظفار: خرز ينسب إلى ظفار، وهي مدينة باليمن.
(٨) حبسني ابتغاؤه: أعاقني التفتيش عليه.

الرهط[١] الذين كانوا يرحلون[٢] بي فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه لخفتي ووضعوه على ظهر الجمل، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن إنما يأكلن العلقة[٣] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن[٤] فبعثوا الجمل[٥] وساروا باتجاه المدينة.

فلما رجعت بعد أن وجدت عقدي لم أجد في المكان أحداً، فجلست في المكان الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ. فبينما أنا في مكاني غلبتني عيني فنمت.

وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي من وراء الجيش فادَّلج[٦] فأصبح عند منزلي (أي مكان نزولي) فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه (أي قوله إنا لله وإنا إليه راجعون) حين عرفني فخمَّرت وجهي بجلبابي[٧] ووالله ما كلمني كلمة، حتى أناخ راحلته[٨] فوطىء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش.

وتكلم الناس وخاض أهل الباطل في حديثي وكان الذي يثير الإفك[٩] والبهتان عبدالله بن أُبيّ الذي رأى صفوان آخذاً بزمام ناقتي[١٠] عند رجوعي

(١) الرهط: الجماعة.
(٢) يرحلون: يجمعون الرحل على البعير، والرَّحل ما يوضع على ظهر البعير ليركب.
(٣) العلقة: القليل.
(٤) جارية حديثة السن: فتاة شابة في أول عمرها.
(٥) فبعثوا الجمل: حلوا عقاله وأطلقوه.
(٦) فادّلج: سار آخر الليل.
(٧) خمرت وجهي بجلبابي: غطيت وجهي بإزاري.
(٨) أناخ راحلته: أبرك جمله.
(٩) الإفك: الكذب.
(١٠) زمام الناقة: حبل الناقة (رسنها).

إلى الجيش وهو الذي كان يقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، وشايعه في باطله وكذبه حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش.

وقدمنا إلى المدينة فاشتكيت[1] شهراً والناس يفيضون[2] في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وكان مما يريبني[3] في مرضي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي من المرض، فكنت إذا اشتكيت رحمني ولَطُف بي فلم يفعل ذلك في شكواي تلك فأنكرت ذلك.

وفي بعض الليالي خرجت مع أم مسطح جهة المناصع[4]، وفي الطريق عثرت أم مسطح في مِرْطها (أي كسائها) فقالت: تعس[5] مسطح فأنكرتُ ذلك وقلت أتسبين رجلاً شهد بدراً[6]، فقلت: أوَ ما بلغك الخبر؟ قلت لها: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك الذين منهم مسطح فازددت مرضاً على مرض. فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلَّم ثم قال: كيف تيكم[7]؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن استيقن الخبر من قِبَلهما. فَأَذِن لي رسول الله فجئت أبويَّ، فقلت لأمي: ماذا يتحدث الناس؟ قالت يا بنيَّة هوِّني عليك فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة[8]

(١) فاشتكيت: مرضت.
(٢) يفيضون: فاض القول شاع وانتشر.
(٣) يريبني: الريب هو الشك مع تهمة.
(٤) المناصع: مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها قبل استعمال المراحيض.
(٥) تعس: يقال في الدعاء على الإنسان بمعنى سقط على وجهه أو هلك.
(٦) شهد بدراً: أي قاتل في معركة بدر.
(٧) تيكم: إشارة إلى المؤنثة.
(٨) وضيئة: جميلة.

عند رجل يحبها ولها ضرائر إلَّا كَثَّرن فيها[1] فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا. فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ[2] لي دمع، ولا أكتحل بنوم[3]، ثم أصبحت أبكي.

ثم دعا رسول الله علي بن أبي طالب، وأُسامة بن زيد حين استلبث الوحي (أي ابطأ نزوله) يستشيرهما في فراق أهله (أي في طلاقها) فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله وقال: أهلك ولا نعلم إلَّا خيراً. وأما عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية[4] تصدقك[5]، فدعا رسول الله بريرة وسألها عن أمري، وقال: هل رأيت من شيء يريبك من عائشة، قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أَغْمِصُهُ[6] عليها أكثر من أنها حديثة السن تنام[7] عن عجين أهلها فتأتي الداجن[8] فتأكله.

ثم قام رسول الله إلى المنبر مخاطباً المسلمين: وكان مما قال: من يعذرني من رجل[9] قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت من أهلي إلَّا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً[10] ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتي قط إلَّا

(١) كثَّرن فيها: أي أكثرن القول في عيبها ونقصها.
(٢) لا يرقأ: لا يجف.
(٣) أكتحل بنوم: أي لا أنام.
(٤) الجارية: الخادمة أو العبدة.
(٥) تصدقك: تورد لك الحديث على حقيقته بلا كذب.
(٦) أغمصه: أعيبه.
(٧) تنام: تغفل.
(٨) الداجن: كل ما ألف البيوت وأقام بها من حيوان وطير.
(٩) من يعذرني من رجل: من ينصرني منه، أو من يعاقبه على سوء فعله وهو عبد الله بن أُبيّ.
(١٠) ذكروا رجلاً: أي ذكروه بالسوء وهو صفوان.

وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلّا غاب معي.

ومكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي. فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ دخل علينا رسول الله فسَلَّم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل فيَّ ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحي الله إليه في شأني شيئاً، ثم قال: يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألممتِ(1) بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله مقالته فاض دمعي ثم قلت: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة ـ والله يعلم إني بريئة ـ لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لَتُصدِّقونني، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلّا قول والد يوسف (أي يعقوب عليه السلام): ﴿فَصَبْرٌ جَميلٌ واللَّهُ المسْتَعانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله سيبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أنه سينزل فيَّ قرآن يُتلى، ولَشَأْني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بآية تتلى، ولكني كنت أرجو أن يُري رسول الله رؤيا في النوم يبرئني الله بها.

وتضيف عائشة: فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي عليه فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء (أي الشدة) حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان(2) من العرق وهو في يوم شاتٍ من

---

(1) الممتِ بذنب: قاربتِ ذنباً.
(2) الجمان: اللؤلؤ.

ثقل القول الذي أُنزل عليه، فلما سرِّي عن رسول الله (أي انكشف الوحي عليه) سرِّي عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة، إن الله قد برأك، فقال لي أبواي قومي إليه. فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي...» وأنزل الله الآيات العشر في ذلك والتي سيأتي ذكرها.

العبرة من قصة الإفك

لقد كانت حادثة الإفك امتحاناً وابتلاء لرسول الله ﷺ وأهل بيته وصحابته ليرفع بها أقواماً ويضع بها آخرين، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن يبطىء نزول الوحي على رسول الله شهراً في شأن عائشة ليزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته، ويزداد المنافقون كذباً ونفاقاً، ولتتم العبودية الحقة في شأن عائشة، ولينقطع رجاؤها من الخلق، ولهذا وفّت لهذا المقام حقه لما قال لها أبواها قومي إلى رسول الله لتحمده بعد أن نزل الوحي الإلّهي ببراءتها فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلّا الله الذي أنزل براءتي. وهذا يدل على رزانتها ومبلغ إيمانها بالله.

ومن نواحي الخير في قصة الإفك أنها تكشف على مدى الدهر أن القرآن وحي إلّهي وأن محمداً رسول الله حقًّا. لقد خاض المنافقون ومن شايعهم في عِرْض رسول الله الذي عانى من ذلك من الألم ما يفتت الصخر، ولكن لم تُؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله، وكان قوله لكل من سأله في شأن عائشة: «والله ما علمت من أهلي إلّا خيراً» ولقد استشار أصحابه وما كان جوابهم: ما علمنا عليها من سوء، كما أن رسول الله قال لعائشة: «فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن

كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب، تاب الله عليه».

هذا الكلام هو من وحي ضمير رسول الله وهو كما نرى من كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل الوحي الإلهي عليه معلناً براءة زوجته، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن من تأليفه كما يدعي أعداؤه أن يعلن براءة زوجته من أول يوم ليحمي عرضه، ويرفع عن أهله شائعات السوء شهراً كاملاً، ولكن محمداً ﷺ هو الصادق الأمين الذي لا يتكلم إلّا بما يوحيه إليه ربه[1].

وحادثة الإفك تشهد بعظمه رسول الله فبالرغم مما عانى من آلام مضنية حيث اتُهمت زوجته بالسوء فإنه أمام ذلك اعتصم بالصبر وكظم غيظه نحو الذين يشيعون ذلك، وكانت إشارة منه تكفي لقيام المسلمين بضرب أعناق القاذفين بالزور والبهتان في حق زوجته، وعندما نزل عليه الوحي الإلهي بتبرئتها لم يتجاوز حده بل أقام عقوبة القذف (ثمانين جلدة) في حق الأفراد الذين تكلموا بهذا البهتان[2]، وهي العقوبة التي حددها الله في ذلك الأمر.

---

(١) نقلاً باختصار وتصرف عن كتاب «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز.

(٢) من الذين نالوا عقوبة القذف حسان بن ثابت، وبعد أن نزلت الآيات ببراءة عائشة ندم حسان واعتذر وقال يمدحها في أبيات مطلعها:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبة   وتصبح غَرْثى من لحوم الغوافل

حَصان: أي عفيفة. رزان: أي ذات ثبات ووقار وعفاف. لا تزنّ بريبة: أي لا تتهم بسوء ظن وشك. غَرْثى: جائعة. الغوافل: جمع غافلة وهي المرأة العفيفة السليمة المصدر. والمراد أن عائشة لا تغتاب العفائف ولو كانت مغتابة لكانت آكلة من لحمهن فتكون شبعانة لأن الغيبة شبّهها القرآن بأكل لحم الميتة.

الآيات التي نزلت في تبرئة عائشة

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُم لا تحسَبُوهُ شرًا لَكُم بَلْ هُوَ خَيرٌ لَكُم لِكُلِّ امرىءٍ منهم ما اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ. لولا إِذْ سَمِعْتُموه ظَنَّ المؤمِنُونَ وَالمؤمنات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ. لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبونَ﴾ (١١ ـ ١٣).

فالله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُم﴾ الإفك: هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والإفك ما قُذفت به عائشة من السوء في حقها، والعصبة: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة أشخاص، فالذين جاءوا بهذا الكذب والبهتان في حق عائشة واتهموها بعلاقة آثمة مع صفوان هم جماعة منكم أيها المؤمنون ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُم﴾ أي لا تظنوا يا من تضررتم بهذه الحادثة أنها شرٌّ لكم بل هي خير لكم عند الله لما نلتم من ثواب الله العظيم على ما تحملتم من الألم والمعاناة، والذي تضرر وساءه ذلك هم المؤمنون وبالأخص رسول الله وأبي بكر وعائشة وصفوان. وفي هذه الحادثة خير وإعلاء لشأن عائشة لما نالت من براءة الله لها وكفى بذلك فخراً ﴿لِكُلِّ امرىء مِنْهُم مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ لكل امرىء من هذه الجماعة التي خاضت بحديث الإفك جزاؤه عند الله على مقدار اشتراكه في الخوض فيه ﴿وَالَّذي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم لَهُ عَذَابٌ عظيم﴾ والذي قام بمعظم الإفك وبدأ به هو المنافق عبدالله بن أُبيّ الذي له عذاب النار في الآخرة لعظم جرمه.

﴿لولا إذ سَمِعْتُموهُ ظَنَّ المؤمنونَ بِأَنفُسِهِم خَيْراً﴾ لولا: هي للحض بمعنى: هلّا، تأكيداً للتوبيخ ومبالغة في العتاب، أي هلّا إذ سمع المسلمون

الطعن في عائشة وصفوان أن يظنوا خيراً بهما ﴿وَقَالوا: هٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي قالوا عند سماعهم هذه الإشاعة: هذا كذب ظاهر واضح.

تأمل كيف عبّر القرآن عن عائشة وصفوان بقوله ﴿بأَنفسهم﴾ لأن المؤمنين في نظر القرآن هم كنفس واحدة ما يصيب الفرد يصيب الآخر[1] لذا أوجب الله على المؤمنين إذا سمعوا رجلاً يتهم أحداً بالسوء ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروه ويظنوا به خيراً.

ثم إن على المؤمنين أن يقيسوا هذا الأمر على أنفسهم فإن كان هذا العمل لا يليق بهم فهو في حق أم المؤمنين عائشة أَوْلى، وهذا ما أدركه أبو أيوب خالد بن زيد إذ قالت له امرأته: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة قال: بلى وذلك الكذب، ثم خاطب زوجته: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله ما كنت لأفعله، فأجابها زوجها: فعائشة والله خير منك. فإذا كانت أم أيوب تأنف ذلك فبالأحرى أم المؤمنين عائشة لأنها خير منها وأفضل.

﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي هلاّ جاء هؤلاء المفترون بأربعة شهود يشهدون على صحة ما يدّعون، فإذا لم يأتوا بأربعة شهود ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبونَ﴾ فهم في حكم الله وشريعته كاذبون، وهذا توبيخ للذين سمعوا الإفك فلم يحرصوا على دفعه وإنكاره وتكذيبه وطلب البينة من المفترين وبالأخص فإن المتهمة هي عائشة أم المؤمنين زوجة رسول الله وبنت الصديق أبي بكر.

---

(١) أورد القرآن هذه الحقيقة في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ أي لا يطعن بعضكم ببعض. وقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً.

فالمبدأ الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي هو أن كل رجل بريء لا إثم عليه ما لم يكن هناك بيّنة واضحة تدل على جُرمه.

وتتابع الآيات في تبرئة عائشة وذم الذين تكلموا بالباطل فيها:

﴿وَلَوْلا[1] فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ في الدُّنيا وَالآخرةِ لَمَسَّكُم في مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم وَتَقُولون بِأَفْواهِكُم مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودوا لِمِثْلِهِ أَبداً إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ. وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٤ - ١٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ أي ولولا أن تفضّل الله عليكم ببيان الأحكام التي فيها خيركم ﴿وَرَحْمَتُه في الدُّنيا والآخِرة﴾ ورحمته لكم في الدنيا بعدم تعجيل العقاب لعفوه عنكم، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً ﴿لَمَسَّكُم في مَا أَفَضْتُم[2] فيه عذاب عَظِيمٌ﴾ لنزل بكم عذاب عظيم بسبب خوضكم في هذه التهمة النكراء ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ[3] بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أصلها تتلقونه حُذف من الفعل إحدى التائين أي تقبلون هذا الإفك ويرويه بعضكم عن بعض، وقد رُوي أن الرجل المنافق كان يلقى الآخر فيقول: أو ما بلغك كذا وكذا عن عائشة ليشيع عليها بذلك الفاحشة ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هيِّناً﴾ وتظنون

---

(١) لولا: حرف امتناع لوجود، أي دلت على عدم مسهم العذاب بوجود فضل الله ورحمته.

(٢) أفضتم: الإفاضة هي الخوض في الكلام مع الإكثار فيه كأنهم زادوا في حديثهم حتى فاض من جوانبهم كما يفيض الماء من إنائه.

(٣) روي عن عائشة أنها كانت تقرأها (إذ تَلِقُونَهُ) وتقول إنما هي وَلْق القول يعني الكذب.

LAU LIBRARY

أن قولكم ذلك وروايتكم لما سمعتموه هين سهل لا إثم عليكم فيه ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وهذا الحديث الذي تتناقلونه في شأنها عظيم ذنبه وعقابه.

﴿وَتَقُولُونَ بأفواهكم مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم من الأمر الذي تتحدثون به، وفي ذلك دلالة على أنه لا يجوز الإخبار عن أمر ما إلاّ مع العلم اليقيني. وفي قوله سبحانه: (بأفواهكم) دليل أن كلامهم يجري على الألسن بدون أن يكون له أصل ومعتقد في القلب بل هو حديث سطحي تتناقله الألسن وهو حديث لا يعتد به.

﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّم بِهَذَا﴾ أي هلاّ إذا سمعتم حديث الإفك قلتم لهؤلاء المفترين: ما ينبغي أن نتكلم بهذا الحديث ولا يحلُّ لنا أن نتفوّه به ﴿سُبْحَانَك هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ سبحانك: (ذكرت هنا بمعنى التعجب) أي تنزيهاً لك يا رب أن تكون امرأة رسولك فاجرة، وما يتحدثون به هو كذب عظيم افتراؤه ﴿ يَعِظُكُم اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أبداً﴾ ينصحكم الله وينهاكم أن تعودوا لمثل هذا القذف أبداً في حق المؤمنين بدون بيّنة ﴿إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنينَ﴾ إن كنتم مؤمنين بالله حقيقة تتعظون بنصائحه وتأتمرون بأوامره ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ ويوضح الله لكم الآيات الدالة على الأحكام والآداب لتعملوا بها ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه عالم بكل شيء حكيم في تدبير خلقه.

ثم يبين الله مبلغ الجرم الذي يرتكبه الذين يعملون على تشويه سمعة المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشيعَ الفَاحِشَةُ في الَّذين آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لا تَعْلَمُونَ. وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ وأَنَّ اللَّهَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩ - ٢٠).

والمعنى: إن الذين يحبون أن ينتشر خبر الزنا والمنكرات في الذين آمنوا كذباً بدون بينة لهم عذاب أليم موجع في الدنيا بحد القذف الذي شرعه الله وهو ثمانون جلدة، ولهم في الآخرة عذاب جهنم إن ماتوا مصرّين على ذلك غير تائبين منه، والله يعلم جميع أحوالكم الظاهرة والباطنة وأنتم لا تعلمون ما يعلمه.

فشيوع تهمة الزنا في الذين آمنوا ظلماً وعدواناً هو تعدٍّ على حرماتهم وإيلام لهم، ولا أشد إيلاماً للنفس من إلصاق تهمة باطلة بها، ولهذا حذّر الله الذين يشوهون سمعة المؤمنين بأشد العذاب.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ﴾ أي ولولا أن تفضل الله عليكم أيها الناس ورحمكم بتوفيقكم للتوبة التي تمحو الذنوب، وجواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي لعجل لكم العقوبة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ والله ذو رأفة ورحمة للتائبين من عباده، وهذا مما يفتح باب الرجاء أمام المؤمنين فلا يقنطون من رحمة الله وغفرانه لهم.

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ
فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ
مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٢١)
وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ
وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٢٣) يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ
أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤) يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ
دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ (٢٥) ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ
وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ
أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (٢٦)

شرح المفردات

خطوات الشيطان: طرقه ومذاهبه.

الفحشاء: ما عظُم قبحه من الأفعال والأقوال.

المنكر: كل ما قبّحه شرع الله وحرّمه وكرهه، وهو ضد المعروف.

ما زكى: ما تطهّر من دنس المعصية.

لا يأتل: لا يحلف.

أولو الفضل: أصحاب الأيادي الجميلة والخير والإحسان.

والسَّعة: الغنى وكثرة المال.

المحصنات الغافلات: العفيفات اللاتي لا يخطر ببالهن ما اتهمن به.

يُوفِّيهِمُ: يعطيهم حقهم كاملاً.

دِينَهُمُ الحَق: جزاءهم الحق العادل.

ويتابع القرآن فيحذر المؤمنين من السير في طرق الشيطان:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحشاءِ وَالمنْكرِ، وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُه مَا زَكَى مِنكُم مِنْ أَحَدٍ أَبداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١).

والمعنى: يا من صدقتم بوحدانية الله ورسوله محمد لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه بإشاعتكم الفاحشة في الذين آمنوا، ومن يقتفي آثار الشيطان ويتبعه فقد عصى ربه لأنه يأمر بالفحشاء، وهي كل ما اشتد قبحه من الأعمال والأقوال، كما يأمر الشيطان بالمنكر، وهو الذي ينكره شرع الله وتنفر منه العقول السليمة ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم ببيان الأحكام وقبول توبة العصاة ﴿مَا زَكَى مِنْكُم مِنْ أَحدٍ أَبداً﴾ ما تطهر منكم من أحدٍ أبداً من ذنوبه وآثامه ولا اهتدى إلى شيء من الخير ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاء﴾ ولكن الله يطهر من يشاء من عباده من الذنوب والآثام بالأحكام والشرائع التي ينزلها على رسله، ويوفقهم للتوبة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميع لأقوال الناس عليم بأفعالهم.

ثم يدعو الله المؤمنين إلى العفو عمن أساء اليهم ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وهذا ما حصل من ذيول قصة الإفك:

وَلاَ يأْتَلِ أُولوا الفَضْلِ مِنْكُم وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤتوا أُولي القُرْبى والمسَاكِينَ وَالمهَاجِرينَ في سَبيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّون أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿ولا يأْتَلِ أُولو الفَضلِ مِنْكُم والسَّعَةِ﴾ أي ولا يحلف بالله أصحاب الإحسان والفضائل والسعة في المال ﴿أن يُؤتُوا أُولي القربى﴾ أن لا يحسنوا إلى ذوي قرابتهم ﴿والمسَاكين والمهَاجِرينَ في سَبيلِ

اللَّهِ﴾ أي ولا يحلفوا على أن لا ينفقوا على المحتاجين والمهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بعقيدتهم من اضطهاد قريش ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي وليعفوا على من آذاهم فلا يحرمون عطاءهم لهم، والعفو هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب، أما الصفح فهو ترك اللوم والتعيير بالذنب. وصفحتُ عنه: أوليتُه مني صفحة جميلة معرضاً عن ذنبه. والصفح أبلغ من العفو ﴿أَلا تُحِبُّون أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عمن أساء إليكم، والغفران من الله هو أن يصون الإنسان من أن يمسه العذاب يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله مبالغ في المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم.

هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق حيث كان يتصدق وينفق على ابن خالته «مسطح» وهو من المهاجرين وأحد الذين قذفوا ابنته عائشة بالفاحشة. فلما نزلت الآيات في براءة عائشة وجلد رسول الله مسطح ثمانين جلدة جزاء قذفه، قال أبو بكر الصديق: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال في عائشة.

وبعد نزول هذه الآية يظهر لنا العنصر الطيب المؤمن في أبي بكر الصديق الذي ما كاد يسمع هذه الآية التي تأمر بمقابلة الإساءة بالإحسان، وتعد بغفران الله لمن يفعل ذلك حتى ترك دواعي السخط والانتقام جانباً وقال «والله إني لأُحب أن يغفر الله لي» جواباً على ما ذكرته الآية ﴿ألا تحبُّون أن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم﴾ وأعاد أبو بكر النفقة التي كان ينفقها على مسطح وقال: لا أنزعها منه أبداً.

ويتابع القرآن فيبين الإثم الكبير لمن يقذف العفيفات بالزنا:

﴿إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المؤْمِنَاتِ لُعِنُوا في الدُّنيا والآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم أَلْسِنَتُهُم وَأَيدِيهِم وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانوا يَعْمَلُون. يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُون أَنَّ اللَّهَ هو الحَقُّ المبِينُ﴾ (٢٣ - ٢٥).

فالله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المحْصَنَاتِ﴾ أي إن الذين يقذفون العفيفات بالزنا ﴿الغَافِلاتِ﴾ أي الغافلات عن الفواحش السليمات الصدور، النقيات القلوب ﴿المؤمِنَاتِ﴾ أي المتصفات بالإيمان وبكل ما يجب أن يؤمن به ويُعمل من الواجبات ويترك من المحظورات ﴿لُعِنُوا في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أُبعدوا وطردوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب جهنم.

ويوم القيامة تشهد عليهم ألسنتهم وجوارحهم بما تكلموا وعملوا به من ذنوب في دنياهم حين يجدون ما عملوا حاضراً أمامهم مكتوباً في صحائفهم التي دونتها الملائكة ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾ دينهم: أي حسابهم، أي يوم القيامة يعطيهم الله ثواب وجزاء أعمالهم حقًّا لا شك في ثبوته ﴿وَيَعْلَمُون أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ المبينُ﴾ ويعلمون يومئذ أن الله هو الحق الذي لا يوصف بباطل، وأن وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جَوْر فيه.

هذه الآيات قيل إنها نزلت في خصوص من قذف عائشة بالفاحشة ولكن حكمها عامٌّ في كل من يقذف مؤمنة عفيفة لم تقارف سوءاً والقذف يشمل الرجال والنساء.

يقول ابن كثير في تفسيره: أجمع العلماء قاطبة على أن من سبَّ عائشة بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذُكر في هذه الآيات فإنه كافر لأنه معاند للقرآن.

وعلى ضوء ما تقدم يبين القرآن أن الرجال والنساء ينجذبان إلى بعضهما البعض حسب صفاتهما وميولهما:

﴿الخبيثَاتُ لِلْخَبيثينَ وَالخبيثُونَ لِلْخبيثَاتِ، والطَّيِّبَاتُ للطَّيِّبينَ والطَّيِّبونَ للطَّيِّباتِ أُولئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولونَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٦).

فالله سبحانه يقول: ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾ أي الخبيثات من النساء لا يستأهلن إلّا الأزواج الخبيثين، فمن طابت نفسه من الرجال واجتنب الإثم والفواحش فمحال عليه أن يميل إلى امرأة خبيثة ساقطة ليجعلها رفيقة عمره، وكذلك الخبيثون من الرجال لا يستحقون إلّا خبائث النساء ولا يميلون إلّا إليهن.

وقد تحتمل الآية معنى آخر وهو أن الخبيثات من القول ـ أي قبيحه وسيئه ـ تقال للخبيثين من الرجال والنساء ولا تقال للطيبين منهم، والخبيثون من الناس يقولون الكلمات الخبيثة التي فيها الكذب والطعن بالناس.

﴿والطَّيِّبَاتُ للطَّيِّبين والطَّيِّبُونَ للطَّيِّباتِ﴾ أي أن الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، أو بمعنى الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول.

وإذا كان رسول الله محمد ﷺ أطيب الطيبين تبين كون زوجته عائشة أطيب الطيبات واتضح بطلان ما رُميت به من كذب وافتراء ﴿أُولئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي أن عائشة وصفوان مبرآن مما أشيع عنهما من الأقوال الخبيثة ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ولهؤلاء الطيبين من الناس مغفرة من الله وصونٌ لهم من عذاب الآخرة، ورزق وافر لهم في الجنة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ
أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا
فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ
فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩

شرح المفردات

تَسْتَأْنِسُوا: تستأذنوا.
أزكى لكم: أطهر لكم.
جُناح: إثم.

أحْكَامُ الاسْتِئْذَانِ

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الأدب الذي يتوجب على المؤمنين الأخذ به حين الدخول إلى بيوت بعضهم البعض حفاظاً على حرمتها، ووقاية من أن تقع الأعين على عورات الرجال والنساء، وهذا الأدب يتمثل في الاستئذان من أصحاب البيوت قبل الدخول عليهم ثم إلقاء التحية عليهم. وهاتان الصفتان هما اليوم من الآداب التي تعد من مميزات المدنيّة الحديثة فتراهم يحرصون عليهما ولا يتسامحون في الإخلال بهما، والإسلام له السبق في ذلك، إذ يقول تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِين آمنوا لا تَدْخُلوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُم حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِها ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧).

LAU LIBRARY BEIRUT

رُوي في أسباب نزول هذه الآية: أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فنزلت تلك الآية.

فما من أحد إلّا وهو عرضة لأن يكون على حالة لا يحب أن يراه فيها أحد، فإذا فوجىء وهو على هذه الحالة بدخول زائر عليه تألم وامتعض من دخوله عليه قبل الاستئذان منه.

فالله يأمر المؤمنين بألّا يدخلوا إلى بيوت بعضهم بعضاً ﴿حَتَّى تستأنسوا﴾ أي حتى تستأذنوا فتعلموا أيريد أهل البيت أن تدخلوا عليهم أم يرفضون.

وتستأنسوا هي من الاستئناس: خلاف الوحشة، والأَنَسُ والأُنْسُ الطمأنينة، فالذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفايا الحال عليه، فإذا أُذِنَ له استأنس وزالت وحشته، هذا بالنسبة إلى الطارق؛ أما بالنسبة لأهل البيت فهو يحدث في نفوسهم أُنساً وطمأنينة واستعداداً لمقابلته.

وقد تكون ﴿تستأنسوا﴾ من آنس الشيء إذا رآه وأبصره، أي حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال وتعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم، وأنه قد أذن بدخولكم.

والاستئذان يكون بوسائل متعارفة كدقّ الباب، أو قرع الجرس، أو النداء لمن في البيت، أو صريح الاستئذان، أو التنحنح أو التسبيح وما يجري مجرى ذلك.

﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ أي إذا استأذنت فقل السلام عليكم فإذا رُدَّ

عليك السلام فقل: أأدخل، أو هل تسمحون بدخولي، فإن أذن لك فادخل، وإن لم تسمع إجابة فاستأذن ثلاثاً فإذا لم يؤذن لك بعد ثلاثٍ ظهر لك أن رب المنزل لا يريد الإذن لك، أو يمنعه عن إجابتك عذر لا يمكنه قطعه، فينبغي حينئذ الانصراف لأن الزيادة على ذلك قد تقلق رب المنزل، ولا ينبغي أن تزيد في الاستئذان على ثلاث إلّا أن تتحقق أن من في البيت لا يسمعك. ﴿ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم﴾ أي ذلك الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول على الناس بغتة بدون استئذان ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ لعلكم تتعظون وتعملون بهذه الآداب الرشيدة.

وقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام يقول الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته: حييتم صباحاً، وحييتم مساء ثم يدخل البيت بدون استئذان، فربما رأى الرجلَ مع امرأته في حالة خاصة، وقد تكون المرأة مكشوفة العورة هي أو الرجل، وكان ذلك يؤذي ويجرح شعور أهل البيت، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها، كما يعرض النفوس من هنا وهناك للفتنة حين تقع الأعين على ما لا يُسِرّ.

والاستئذان يسري حتى على الأم في غرفتها، فقد رُوي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي، قال النبي ﷺ: نعم، قال الرجل: إنها ليس لها خادم غيري أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال النبي ﷺ: أتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا، فقال النبي ﷺ: فاستأذن عليها.

ويتابع القرآن توضيح بعض أمور الاستئذان:

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُم، وَإِن قِيلَ لَكُم ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُم وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُم وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٨ - ٢٩).

LAU LIBRARY BEIRUT

فالله يأمر المؤمنين بأنهم إذا لم يجدوا في البيوت أحداً من الناس يأذن لهم بالدخول إليها ﴿فَلَا تَدْخُلوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي فلا تدخلوا هذه البيوت لأنها ليست لكم فلا يحلّ لكم دخولها إلاّ بإذن أصحابها ﴿وَإِن قِيلَ لَكُم ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ وإن كان في هذه البيوت أناس ولم يسمحوا لكم بالدخول وطلبوا منكم الرجوع فارجعوا ولا تُلحّوا في طلب الإذن ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُم﴾ أي فإن الرجوع أكرم لكم وأطهر لنفوسكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ والله مطلع على كل أحوالكم ومجازيكم عليها فلا تخالفوا إرشاداته.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ﴾ ليس عليكم إثم ولا حرج ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُم﴾ والمتاع يطلق في اللغة على المنفعة وعلى الغرض والحاجة، والبيوت غير المسكونة التي فيها منفعة وحاجة مثل الحوانيت والفنادق ودور العبادة والبيوت المعدة للضيافة بعيداً عن السكن فهذه وأمثالها لا إثم في دخولها بغير إذن. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ والله عالم بجميع أعمالكم الظاهرة والباطنة فاتقوا مخالفة أمره.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ
يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ
وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ
بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ
أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ
أُولِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

شرح المفردات

يغضّوا من أبصارهم: يكفوا أنظارهم عما لا يحلّ النظر إليه.

يحفظوا فروجهم: الفرج سوأة الرجل أو المرأة أي يحفظوها من الزنا.

خُمُرهن: جمع خمار وهو غطاء الرأس للمرأة.

جيوبهن: جمع جيب وهو فتحة في أعلى القميص يظهر منه الصدر.

بعولتهن: جمع بعل وهو الزوج.

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ: ما تملك أيديهم من العبيد والإماء.

أولو الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجال: الرجال الذين لديهم الرغبة الجنسية.

لم يظهروا على عَوْرَاتِ النِّساء: لم يبلغوا سن الشهوة الجنسية.

أَحْكَامُ غَضِّ البَصَرِ، وَحُدودُ زِينَةِ المرأة

ولما كان النظر هو المدخل الأساسي لإثارة الشهوة الجنسية في النفوس سواء في الرجل أو المرأة لذا قيده القرآن بطريقة تحفظ طهارة النفس وعفتها كما أمر المرأة بعدم إظهار زينتها للغرباء عنها، يقول تعالى:

﴿قُلْ لِلْمؤْمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِم وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُم ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بُخُمرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ...﴾ (٣٠ ـ ٣١).

أمر الله المؤمنين والمؤمنات بالغض من البصر، وغض البصر هو خفضه وكفه عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، وليس المراد أن يكون الإنسان مطرقاً رأسه فلا ينظر رجل إلى امرأة أو العكس لأن هذا مما يتعذر بل لا يستطاع ولذلك أمر الله بالغض منه. و(من) للتبعيض وهو يحصل بعدم إدامة النظر وإطلاقه إلى ما يحرم النظر إليه من العورات بالنسبة للرجل والمرأة، وهذا ما سنفصله فيما بعد.

فالقرآن يعالج الفساد في الناحية الجنسية من بداية الطريق لأن الإنسان ليس له القدرة على لجم نفسه أمام طغيان الشهوة بل عليه واجب الاحتياط ومنع المقدمات التي تثيرها وهي صيانة النظر عن المغريات.

فالنظر هو المدخل الأساسي لتسرب الشهوة الجنسية إلى النفس لذا نهى القرآن المؤمنين والمؤمنات أن ينظر أحدهم إلى الجنس الآخر ويديم النظر إذا كان هذا الآخر أجنبيًّا غير محرم.

وعلى تأثير نظر الرجل إلى المرأة أو العكس يحضرنا قول الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشررِ
كم نظرة فعلت في قلب فاعلها	فعل السهام بلا قوس ولا وترِ

وكما يقول آخر:

وأنت إذا أرسلت طَرْفك رائداً	لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كله أنت قادر	عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

لذا كان القرآن دقيقاً عندما عقّب على غض النظر بقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُم﴾ بالنسبة للرجل ﴿وَيَحْفَظْنَ فُروجَهُنَّ﴾ بالنسبة للمرأة، والفرج كني به عن السوأة عند الرجل والمرأة، وحفظ الفرج هو حفظه من النظر ومن الزنا.

ثم إن غض النظر يترتب عليه فوائد كثيرة فسرها القرآن بقوله: ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي هو أطهر لقلوب المؤمنين والمؤمنات ومشاعرهم فلا تتلوث بإثارة الشهوات والوقوع في المحرمات.

وتأتي ﴿أزكى﴾ في اللغة بمعنى النماء، أي إن غض النظر عن الشهوات وحفظ الفرج من الزنا ينمي مواهب الإنسان ويحفظ له قدراته الجسدية التي يعود خيرها عليه.

ثم يقول تعالى: ﴿ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي لا يُظهر النساء زينتهن للرجال الأجانب ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ والزينة الظاهرة هي الوجه والكفان بدون أصباغ على الوجه والشفتين[1].

---

(١) إن وضع الأصباغ على الوجوه والشفاه كما تفعل النساء حاليًّا والظهور في ذلك أمام الرجال الأجانب هو من التبرج الذي نهى الله عنه.

ويرى ابن عباس أن الزينة الظاهرة التي يجوز كشفها من المرأة هي: الوجه وكحل العينين وخضاب الكف والخاتم وهذا ما رجّحه الطبري.

والدليل على إباحة كشف الوجه واليدين ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها رسول الله وقال لها: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض[١] لم يصلح أن يُرى منها إلّا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه[٢].

ودليل آخر على إباحة الوجه والكفين هو أن المرأة تصلي وتؤدي شعائر الحج مكشوفة الوجه والكفين، كما أن المرأة مضطرة إلى مزاولة أعمالها بيدها، ومن ثمَّ كانت الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة وعقود الزواج وسواها، وتضطر إلى المشي في الطرقات لشراء حاجاتها ومزاولة العمل في المعامل والمدارس والمستشفيات وغير ذلك.

وقد قيّد العلماء إباحة كشف المرأة وجهها وكفيها إذا لم يترتب على كشفهما فتنة الرجل أو المرأة أما إذا خيف عليها من الفتنة وإلحاق الأذى بها والاعتداء عليها عندئذ وجب عليها ستر ذلك.

ذكرنا فيما سبق أن ظاهر الزينة هو الوجه والكفان فيخرج من ذلك ما خفي من الزينة كالسوار[٣]، والخلخال[٤]، والدملج[٥]، والقلادة[٦]،

(١) بلغت المحيض: أي بلغت السن التي تحيض به وتتجاوز به حد الطفولة.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) يرى ابن جرير الطبري أن السوار من الزينة الظاهرة الذي يجوز إظهاره.

(٤) الخلخال: حلية من فضة أو نحوها تجعلها المرأة في رجلها.

(٥) الدُّملج: حلية تحيط بمعصم اليد.

(٦) القلادة: ما يجعل في العنق من الحليّ (العقد).

والإكليل[١] والقرط[٢]، فلا تُبدي المرأة هذه الزينة للرجال إلّا من استثنت الآية التي سيأتي بيانها.

فهذه الزينة الخفية التي ذكرناها واقعة على مواضع من الجسد لا يصحُّ إظهارها للرجال الغرباء عنها وهي: الذراع، والساق، والعضد، والعنق، والشعر، والصدر، والأذنين، فذكر هذه الزينة غير الظاهرة دون ذكر الموقع الذي تقع فيه للمبالغة في التستر، لأن هذه الزينة تقع على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها من الغرباء.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيوبِهِنَّ﴾ الضرب هنا بمعنى التغطية والإلقاء، والخُمُر: جمع خمار وهو غطاء من قماش تغطي به المرأة رأسها، والجيوب: جمع جيب[٣] وهو فتحة الصدر في الثوب الذي يدخل منه الرأس. وقد كانت العادة عند العرب قبل الإسلام أن يضعن الخُمر على رأسهن ويسدلنها على ظهورهن فتبقى نحورهن وصدورهن عارية فأمرهم الله بستر نحورهن[٤] وصدورهن حتى لا يُرى منها شيء لأنها موضع الفتنة من المرأة.

ثم يبين القرآن الفئات الذين يحق للمرأة أن تظهر أمامهم بزينتها الخفية:

(١) الإكليل: تاج يوضع على الرأس.

(٢) القرط: الزينة التي تعلق في شحمة الأذن (الحلق).

(٣) إن اطلاق اسم الجيب على ما يكون من جنب الثوب لوضع الدراهم ونحوها كما هو الشائع حالياً فليس من كلام العرب.

(٤) نحورهن: جمع نحر وهو أعلى الصدر موضع القلادة.

﴿. . . وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَو آباء بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَو إِخْوَانِهِنَّ أو بني إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي أَخَوَاتِهِن أَو نِسَائِهِنَّ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَّ الرِّجَالِ أَو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّساءِ ولا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ، وَتُوبوا إلى اللَّهِ جميعاً أَيُّهَ المؤمِنُونَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ (٣١).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلا يُبْدينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي ولا يظهرن زينتهن الخفية أي غير الظاهرة كالسوار والخلخال والقرط والدُّمْلُج والقلادة والإكليل التي تقع في مواقع من البدن معينة مثل الذراع والساق والعضد[1] والعنق والشعر والصدر والأذنين وما أُمرت بتغطيته بخمارها من صدرها ورأسها، فهذه الزينة الخفية لا يحل للنساء كشفها ﴿إلاّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ جمع بعل وهو الزوج، إلاّ أن للزوج خاصية عن غيره وهي رؤية كامل بدن امرأته، وكذلك المرأة بالنسبة لزوجها ﴿أو آبَائِهِنَّ﴾ وكذلك يحل للمرأة أن تظهر زينتها الخفية للآباء وتشمل آباء الآباء وآباء الأمهات.

﴿أو آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أي آباء الأزواج.

﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾ وتشمل الأولاد وأولاد الأبناء والبنات.

﴿أَو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ وهم أبناء الزوج من زوجته الأخرى، فللمرأة أن تبدي زينتها لأبناء زوجها مثل ما تبدي من زينتها لأبنائها.

﴿أو إِخْوَانِهِنَّ﴾ وهم الإخوة سواء أكانوا من الأب أو من الأم أو منهما معاً.

(١) العضد: الساعد، وهو من المرفق إلى الكتف.

﴿أو بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾ أي أبناء الإخوة سواء أكان الإخوة من جهة الأب أو من جهة الأم أو منهما معاً وهو الأخ الشقيق.

﴿أو بني أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أي أبناء الأخوات سواء أكانت الأخوات من الأب أو من الأم أو منهما معاً.

﴿أو نِسَائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات، أما غير المسلمات فلا ينبغي للمرأة المسلمة أن تبدي زينتها لهن، كما يرى ذلك بعض العلماء لأنهن لا يتحرجن عن وصفهن لرجالهن، وإضافة النساء إليهن تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات.

ويرى بعض الفقهاء أن المراد بنسائهن هن المختصات بالصحبة والخدمة والتعارف سواء كن مسلمات أو غير مسلمات، وأن الغرض استثناء الأجنبيات اللاتي لا يُعرف شيء عن أخلاقهن وآدابهن، أو تكون أحوالهن الظاهرة مشتبه بها غير موثوقة، فليست العبرة بالاختلاف الديني بل العبرة بالاختلاف الخلقي، وما رُوي عن السلف من منع تكشُّفِ المسلمات لغير المسلمات فهو محمول على الاستحباب والأفضل.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي ما تملكون من الرقيق من عبيد وإماء، وقيل: إنما عَنى بذلك الإماء دون العبيد، وقالوا: يُكره أن ينظر العبد إلى شعر مولاته.

﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ غير أولي الإربة: أي غير أولي الحاجة إلى النساء، قيل هو الذي يتبعك ليصيب من طعامك ولا حاجة له في النساء، وقيل هو العنين، والشيخ الطاعن في السن أو الأبله أو المعتوه، أو الأحمق الذي لا تشتهيه المرأة ولا يُغار عليه من الرجل، أو المخنث.

﴿أو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْراتِ النِّساءِ﴾ المراد بهم الأطفال الصغار الذين لم يدركوا الشهوة ولا يثير لهم جسمُ المرأة شعوراً بالجنس نحوهن. أما إذا بلغوا سن المراهقة وصاروا يفرقون بين الشوهاء والحسناء وثار فيهم شعور بالجنس نحوهن فلا تبدي لهم المرأة زينتها ولو كانوا دون سن البلوغ.

﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ لقد كانت المرأة عند العرب قبل الإسلام تمشي في الطريق وفي رِجلها خلخال فكانت تضرب الأرض برجلها ليسمع صوت خلاخيلها تعرضاً للرجال ولفتاً للأنظار إلى ما خفي من زينتها فنهى الله عن ذلك، وسماع صوت الزينة في المرأة يثير في الرجال الشعور بالجنس نحوهن. ومن هذا الحكم يؤخذ أن كل فعل أو حركة أو مشية مصطنعة من المرأة تثير غريزة الرجال الجنسية نحوها فهو منهي عنه. وبالأخص خروجها متعطرة إلى الأسواق، وقد نهى رسول الله عن ذلك.

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّها المؤمِنونَ﴾ وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، والتوبة من الإنسان تكون بترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ألا يعود إليه ﴿لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ لتفوزوا وتدركوا طلباتكم لدى الله سبحانه، إذا أنتم أطعتموه، وتفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

أحكام النظر إلى العورات

ذكرنا فيما سبق أن القرآن حرم النظر إلى العورات لقوله تعالى: ﴿قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم﴾ ﴿وَقُلْ للمؤمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾.

فالعورة هي ما يجب على الإنسان أن يستره من جسمه ديانة وحياء ويحرم أن يكشفها للغير، وقد جعل الإسلام حدوداً للعورة بالنسبة لجسم الرجل والمرأة، والعورة تنقسم إلى أربعة أقسام:

١) عورة الرجل مع الرجل. ٢) عورة المرأة مع المرأة. ٣) عورة المرأة مع الرجل. ٤) عورة الرجل مع المرأة. وإليكم تفصيل ذلك:

١ ـ فأما عورة الرجل مع الرجل التي لا يجوز النظر إليها فهي ما بين السُّرّة والركبة[1]، والسرة والركبة ليستا بعورة على الأصح، وقيل هما عورة. وقد روي عن حذيفة أن النبي ﷺ مرَّ به في المسجد وهو كاشف عن فخذه، فقال النبي ﷺ: «غطِّ فخذك فإنها من العورة» كذلك يحرم على الرجل النظر إلى وجه الأمرد إذا كان حسن الصورة سواء كان نظره بشهوة أم لا.

٢ ـ عورة المرأة مع المرأة فهي كعورة الرجل مع الرجل أي ما بين السرة والركبة، ولا يجوز للمرأة أن تنظر إلى عورة امرأة أخرى لقول النبي ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة امرأة»[2] ويجوز

(١) إذا كانت عورة الرجل ما بين السرة والركبة فهذا لا يعني أنه يباح له دون حرج أن يسير كاشفاً صدره وظهره في الطرقات وعلى الشرفات فهذا الأمر مكروه وهو مخالف للمروءة إلاّ إذا دعت الضرورة لذلك كعمل ونحوه، هذا مع العلم أن عورة الرجل بالنسبة للمرأة تختلف عن عورة الرجل بالنسبة للرجل كما سيأتي.

(٢) رواه مسلم.

للمرأة المسلمة النظر إلى بدن المرأة المسلمة ما عدا عورتها[١]، أما نظر غير المسلمة إلى بدن المسلمة فقد سبق أن ذكرناه في صفحة: ٦١ عند تفسير (أو نسائهن).

٣ ـ عورة المرأة مع الرجل فهي تختلف باختلاف الصلة بينهما، فإذا كان الرجل مَحْرَماً (أي من أقاربها الذين يحرم عليها الزواج بهم) فعورتها معه جميع بدنها ما عدا الوجه والأطراف وهي: الرأس والعنق واليدان والرِّجلان[٢].

أما إذا كان الرجل أجنبياً عنها فجميع بدنها عورة ولا يجوز للرجل الأجنبي عنها أن ينظر إلى شيء منها إلّا الوجه والكفين، وهذا النظر مقيد بأمور: منها أن ينظر إليها عرضاً ودون قصد، وإذا وقع بصره عليها يغض بصره لأن إدامة النظر مَنْهِيٌّ عنها لقول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الثانية»[٣].

---

(١) إذا كان للمرأة المسلمة أن تستر ما بين السرة والركبة لأنها من العورة بالنسبة للنساء فأين هذا ما تفعله كثير من النساء المسلمات في بعض البلدان العربية حيث يرتدين الملابس القصيرة التي تكشف عن قسم من أفخاذهن ويسرن في الشوارع على مرأى من جميع الناس بمن فيهم رجال السوء متعللين بذلك بأنها هي (الموضة) والموضة كما هي معروفة تأتي من بلاد الغرب التي استحلت الزنا، والذين يصنعون الموضة هم بعض شياطين دور الأزياء الذين لا يبتغون من ذلك إلّا تبرج المرأة وإبراز مفاتنها وترويج بضاعتهم وازدهار مؤسساتهم، فتتقبل بعض النساء المسلمات هذه الموضة ويرتدينها عن خفة في العقل وضعف في الدين وانهيار في الأخلاق وانعدام الحياء فيهن وخلو رجالهن أو آبائهن أو أمهاتهن من الشرف والمروءة وضعف سلطتهم عليهن.

(٢) هذا رأي المالكية نقلاً عن كتاب الفقه على المذاهب الأربعة لفضيلة الأستاذ عبد الرحمن الجزيري.

(٣) رواه مسلم وأحمد.

ويجوز إدامة النظر إلى المرأة إذا كان يريد أن يخطبها، كما يجوز للرجل أن ينظر إلى وجه المرأة عند تحمل الشهادة، وللطبيب الأمين عند المعالجة. ولو وقعت المرأة في خطر الغرق والحريق وسوى ذلك فلا حرج عليه إذا وقع نظره على بدنها لتخليصها.

أما النظر إلى المرأة بشهوة وإدامة النظر إليها للتلذذ فهو حرام لقول النبي ﷺ: «العينان تزنيان وزناهما النظر»[١].

٤ ـ عورة الرجل مع المرأة تختلف باختلاف الناظر إليه، فبالنسبة للنساء المحارم فهي ما بين سرته وركبته، أما بالنسبة للأجنبية عنه فهي جميع بدنه باستثناء الوجه والأطراف وهي الرأس واليدان والرجلان فيجوز للأجنبية النظر إليها عند أمن الشهوة وإلّا منع[٢].

وحرم بعض الأئمة النظر إلى ذلك مطلقاً، وقد روي عن أم سلمة أنها كانت عند النبي ﷺ ومعها ميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم (وهو أعمى) فقال النبي ﷺ: احتجبا عنه، فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا، فقال النبي ﷺ: أفعُمياوان أنتما، ألستما تبصرانه؟[٣].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) هذا رأي المالكية نقلاً عن كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، المرجع السابق.

(٣) أخرجه الترمذي وأبو داود.

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ
وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن
فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا
حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا
تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)
وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)

شرح المفردات

أنْكِحُوا الأيامي: زوجوا العزَّاب من الرجال والنساء.

عبادكم: عبيدكم.

لا يَجدونَ نِكاحاً: لا يجدون القدرة على الزواج من مهر ونفقة.

يَبْتَغُون الكتاب: يطلبون التعاقد معكم لشراء حريتهم مقابل مال أو عمل.

ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء: ولا تجبروا إماءكم على الزنا واحترافه.

إن أردن تحصُّناً: إن أردن تعففاً وبُعداً عن الزنا

لتبتغوا عَرَضَ الحيَاةِ الدُّنيا: لتأخذوا من أجورهم على ذلك.

أحْكَامُ الزِّواج والعِفَّة

ثم ينتقل القرآن إلى الدعوة والمساعدة على تزويج العزاب لأنه من الوسائل الناجعة لصرف الشباب عن الزنا:

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢).

أنكحوا: زوِّجوا، والأيامى: جمع أيِّم وهو العازب يُوصف به الذكر والأنثى يُقال رجل أيِّم وامرأة أيِّمة إذا لم يكن لأحدهما زوج، والمعنى زوِّجوا العزّاب من الرجال والنساء، وليس المراد بالتزويج إجراء عقد الزواج وإنما المراد به الإعانة والمساعدة على الزواج وإزالة العوائق المالية وغيرها من طريقهم، والأمر في الآية للاستحباب لا للوجوب.

﴿والصَّالِحينَ[(١)] مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُم﴾ المراد بالعباد هنا العبيد، والإماء: جمع أمة وهي العبدة وتسمى الرقيقة، والمراد بالصلاح أي الذين يصلحون للزواج ورعاية حقوقه والقدرة على تحمل أعباء الزوجية، والصالحون بالإيمان وحسن الخلق، وقد كان الرق شائعاً في زمن الدعوة الإسلامية، وكان المسلمون في حوزتهم كثير من الأرقاء، فدعا الإسلام إلى تزويجهم، كما دعا إلى تحريرهم في كثير من تشريعاته وسيأتي الكلام عن ذلك فيما بعد.

والزواج، رغَّب فيه النبي ﷺ وحثّ الناس عليه، فقد جاء نفر من المسلمين إليه يتباهون بعبادتهم وادعى أحدهم أنه يعتزل النساء، فقال النبي

(١) اشترط الله الصلاح في الأرقاء دون الأحرار لأن سيدهم يتحمل كل التبعة من تزويجهم بخلاف الأحرار الذين تنحصر مسؤولياتهم على أنفسهم لا على أوليائهم بعد الزواج.

ﷺ: إني لأخشاكم بالله وأتقاكم له لكني أصوم وأُفطر، وأُصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب[1] عن سنتي فليس مني»[2].

وقال عمر بن الخطاب في مناسبة ما لأحد العزاب المسلمين: «ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور».

ثم يعقِّب القرآن على الدعوة إلى الزواج بقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم من عزّاب رجالكم ونسائكم وعبيدكم فقراء فإن الله سيغنيهم من فضله ويهيىء لهم وسائل العيش الكريم.

هذه الآية فيها وعد من الله بالغنى بعد الفقر لمن طلب رضا الله بالزواج وأراد به التحصن من الزنا، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب[3] الذي يريد الأداء، والناكح[4] الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله»[5].

وهذا ما فهمه أصحاب رسول الله ﷺ فقد قال ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح (أي الزواج) وتلا هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب: عجبي ممن لا يطلب الغنى في النكاح، وتلا الآية نفسها، ورُوي عن أبي بكر الصديق قوله: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى.

---

(١) رغب: تركه متعمداً وزهد فيه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) المكاتَب: هو العبد الذي يتفق مع سيده على أداء مال له مقابل عتقه.

(٤) الناكح: المتزوج.

(٥) رواه النسائي.

ويختم الله هذه الآية بقوله: ﴿واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هنا تقرير لهذا الوعد الكريم فسعة فضل الله لا تضيق برزق زوجين فلا نفاد لنعمته، وهو عليم بخلقه يرزق من يشاء منهم بمقتضى حكمته.

وقد يقال بأن بعض المتزوجين الفقراء يظلون على فقرهم بعد الزواج، وقد أجاب القرآن على ذلك وبيَّن أن الغنى يرجع لمشيئة الله كما جاء في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُم عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ (التوبة: ٢٨).

والفقر لا يجب أن يكون عائقاً عن الزواج، وأولياء الفتاة لا يصح أن تكون نظرتهم مركزة على المال بل عليهم إذا تقدم لخطبة ابنتهم من طابت سيرته وحسن خلقه أن يجيبوا طلبه ولو كان فقيراً إذا كان يملك القدرة على الإنفاق على زوجته، فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وَخُلُقه فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[2].

والراغب في الزواج ليس عليه أن يؤخر أمر زواجه انتظاراً للمزيد من الغنى واليسر بل عليه أن يقدم على الزواج متوكلاً على ربه، واثقاً من عونه فإن الزواج كثيراً ما يكون سبباً في السعة في المال، لأن الإنسان ـ بعد الزواج ـ يشعر بتبعات أكبر فيبذل في التكسب جهداً أكثر مما كان يبذله قبل الزواج وبذلك يزيد إنتاجه في العمل.

كما أن للهدوء النفسي الذي يوفره الزواج الأثر الكبير على الزوج في إحسان عمله وإتقانه مما يعود عليه بالخير، كما أن من المشاهد أن للزوجة

---

(١) عيلة: فقراً.

(٢) رواه الترمذي.

الأثر الكبير في حث زوجها على السعي والعمل الدؤوب، ونفخ روح العزيمة فيه مما يضاعف همة الزوج في تحصيل الرزق.

ويتابع القرآن فيدعو إلى العفة لأنها هي المدخل لحياة سعيدة:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. . .﴾ (٣٣).

العفة: الكف عما لا يَحل ولا يَجْمُل، والاستعفاف: الاجتهاد في العفة من ضبط النفس وحفظها عن إتيان ما حرّم الله عليها من الفواحش.

﴿الذين لا يَجِدونَ نِكَاحاً﴾ أي الذين لا يملكون القدرة على نفقات الزواج من مهر ومسكن وإنفاق على الزوجة ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يفهم من هذه الآية أن العفة هي من الوسائل إلى الغنى.

وقد أرشد النبي ﷺ الشباب إلى طريقة تعصمهم من الفواحش فقال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة[١] فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[٢]»[٣].

وثواب العفة عظيم فقد ذكر رسول الله سبعة يظلهم الله في ظله[٤] يوم

(١) الباءة: مؤن الزواج من نفقات مالية ومسكن.
(٢) وجاء: قاطع للشهوة الجنسية.
(٣) رواه البخاري.
(٤) يظلهم الله في ظله: إما بمعنى إيوائهم إلى ظل عرشه يوم تدنو الشمس من الوجوه يوم القيامة، وإما بمعنى أنه يحميهم بحمايته ويؤمنهم مما يخافون من أهوال يوم القيامة، ويشملهم برحمته.

لا ظل إلاّ ظله، وَذَكَرَ منهم: ورجل طلبته امرأة[١] ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين.

فالطلب كان من المرأة وهذه أولى درجات الإغراء وهي أيضاً ذات منصب أي ذات حسب ونسب فلا تأنف النفس من الاتصال بمثلها ولا تحتقرها، وأضاف أيضاً بأنها ذات جمال، فإذا امتنع عن ذلك مخافة الله استحق بذلك رضوان الله عليه وثوابه العظيم.

(١) ورجل طلبته امرأة: أي طلبته امرأة غريبة ليعاشرها بدون عقد زواج.

أَحْكَامٌ في تَحرير الأَرِقَّاء

ثم ينتقل القرآن إلى معالجة الرق[١]، ودعوة المسلمين إلى تحرير ما يملكون من الأرقاء، وقبل أن نذكر الآية التي جاءت في هذه السورة في هذا الصدد نمهد الكلام عن الرق بصورة عامة وموقف الإسلام منه.

لما جاء الإسلام كان الرق سائداً في العالم وبالأخص في جزيرة العرب وكانت مصادر الرق ما يلي:

١ ـ الأسارى الذين يُسترقون عن طريق الحرب.

٢ ـ الأرقاء الذين ولدوا من آباء أرقاء فهم عبيد وراثة.

٣ ـ الأحرار الذين كانوا يسترقون بعد خطفهم على أيدي العصابات التي تُغير على قوافل المسافرين في البر والبحر أو على القرى النائية.

٤ ـ المدينون الذين افتقروا وليس لديهم ما يوفون به ديونهم فيسترقون وفاء لديونهم.

٥ ـ المذنبون الذين يسترقون جزاء ارتكابهم بعض الجرائم كالسرقة مثلاً أو ما يخل بنظام الدولة.

٦ ـ الأولاد الذين اضطر آباؤهم لبيعهم لشدة فقرهم.

فلما جاء الإسلام جعل للرق مصدراً وحيداً وهو عن طريق الأسرى الذين يؤخذون من حرب مشروعة تقوم على من يعترض دعوة الإسلام أو

(١) رجعنا في هذا البحث إلى كتاب (الرق) للدكتور عبد السلام الترمانيني.

يقاومها أو يعتدي على المسلمين[١] كما أقرّ الرق في أبناء الأرقاء الذين يتبعون آباءهم في الرق، وألغى ما سواه من المصادر الأخرى التي كانت سائدة في العالم، وبالمقابل فقد حضّ المسلمين على عتق الأرقاء الذين تحت أيديهم، وجعل عتقهم كفارة لبعض الذنوب، كما جعل عتقهم من أعظم القربات عند الله، وهكذا شرع الإسلام في إلغاء الرق تدريجيًّا وعلى دفعات لأن الرق كان نظاماً عالمياً مشروعاً عند أمم العالم أجمع، فهو عماد الحركة التجارية، وعليه المعول في تحسين الحياة الزراعية والعمرانية، فلو ألغى الإسلام الرق دفعة واحدة لتعرض الوضع الاقتصادي إلى الخلل.

فالإسلام لم يشرع الرق كما شرعته الأمم الأخرى فجعلت منه نظاماً طبيعياً أو إلَهياً، وإنما شَرَعَ العتق ورغَّب فيه، وكان في تشريعه هذا يعالج حالة استثنائية مؤقتة.

ومما شرعه الإسلام لعتق الأرقاء هو قوله تعالى في هذه السورة:

﴿ . . . وَالَّذِين يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُم فِيهِم خَيْراً وَآتُوهُم مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ. . . ﴾ (٣٣).

الكتاب والمكاتبة سواء، والمراد بالكتاب العقد الذي يكتبه السيد

(١) إن الآية الوحيدة التي تعرضت لأسرى الحرب حددت مصيرهم في أمرين: إما المن على الأسرى بالحرية دون مقابل أو فك أسرهم مقابل فدية كما جاء في القرآن: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإماً مَنًّا بعد وإما فِداءً حتى تضع الحرب أوزارها﴾ (محمد: ٤) فهذه الآية لم تذكر استرقاق الأسرى حتى لا يكون هذا تشريعاً للبشرية في المدى البعيد. والإسلام بإباحته الاسترقاق أحياناً عن طريق الحرب المشروعة فإن هذا الحكم هو مجرد إباحة ولا يعني الإلزام وإنما هو متروك لحكمة إمام المسلمين لمعاملة أعداء الإسلام بالمثل لأن الرق لا يمكن إلغاؤه من جانب واحد بينما المسلمون يُستَرَقّون على أيدي أعدائهم.

لعبده بأن يكون حرًّا من العبودية مقابل مال يدفعه له أو عمل ما يقوم به، ومعنى: ﴿مما ملكت أيمانكم﴾ أي مما تملكون وما تحت أيديكم من العبيد والإماء[1].

ومعنى الآية: والأرقاء الذين هم تحت سيطرتكم أيها المؤمنون ويطلبون منكم تعاقداً معكم على دفع عوض من المال مقابل عتقهم واسترداد حريتهم ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ فتعاقدوا مع عبيدكم على أن تحرروهم من الرق في نظير شيء يدفعونه لكم إن علمتم فيهم قوة على احتراف مهنة ما، وقدرة على اكتساب المال من وجه حلال، وصدق في الوفاء بما ألزموا أنفسهم به، وصلاح في الدين فلا يكونوا عبئاً على المجتمع وخطراً عليه.

والمكاتبة واجبة لكل من أرادها من العبيد عند جمهور الصحابة وبعض المفسرين كالإمام الطبري وذلك أن قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبوهُمْ﴾ ظاهره أمر، وأمر الله فرض يجب التقيد به، وقال بعض الفقهاء إنه أمر استحباب كما ذهب الإمام مالك.

وصيغة الكتاب أو المكاتبة أن يكتب السيد لعبده في العقد: كاتبتك على كذا وكذا، ويعين المال والمدة والأقساط المتفق عليها، ثم يضيف: فإذا أديتها فأنت حر. واختلف الفقهاء في جواز دفع المال حالاً أو مؤجلاً على أقساط، فقال أبو حنيفة: يجوز دفع المال حالاً أو مؤجلاً، وقال الشافعي: لا يجوز على أقل من ثلاثة أقساط.

ثم يقول تعالى: ﴿وآتُوهُم مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذي آتَاكُم﴾ أَمْرٌ من الله للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة الأرقاء المكاتبين وإعطائهم من مال الله

(١) الإماء: جمع أمة وهي العبدة.

الذي آتاهم، فالمال في الحقيقة هو مال الله الذي استودعهم إياه وهم سيتركونه بعد مماتهم فلا يجمل بهم أن يبخلوا به بعد أن أمرهم الله ببذله في تحرير الأرقاء.

وإعانة الأرقاء تكون بأن يترك السيد من كل قسط بعض المال المتفق عليه، وقيل يوضع عن العبد بعض المال عن آخر قسط أو يتنازل عنه، أو يوضع عنه من أوله، وقيل: يوضع ربع المكاتبة كما رُوي عن علي رضي الله عنه.

وقيل المراد بقوله تعالى: ﴿وآتُوهُم مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذي آتَاكُم﴾ هو إعطاؤهم حصتهم التي جعلها الله لهم من بيت المال في الصدقات التي وردت في الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ والعَاملينَ عَلَيْهَا والمؤلَّفَةِ قُلُوبُهُم وفي الرِّقَابِ وَالغَارِمين[1] وفي سَبيلِ اللَّهِ وابْنِ السبيل...﴾(التوبة: ٦٠).

فقوله تعالى ﴿وفي الرِّقَابِ﴾ أي في إطلاق الرقاب من قيود الرق وفي هذا التعبير تصوير للرق بأنه بمثابة الأغلال التي توضع في الرقاب وتصوير لمن صار حرًّا بأنه استرد رقبته أي استعاد حريته وإنسانيته.

هذا وإن الإسلام دعا إلى الإحسان إلى فئات من الناس كان الأرقاء من جملتهم:

﴿واعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشركوا بِهِ شَيئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً وَبذي القُرْبى واليتامى والمساكينِ وَالجارِ ذِي القُرْبى وَالجارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وابنِ السَّبيلِ وَمَا مَلَكَتْ أيمانُكُم...﴾ (النساء: ٣٦).

(١) الغارمين: المدينين، وقد جعل الإسلام للمدين المعسر حصة في بيت مال المسلمين بينما كانت الأمم القديمة تسترق المدين العاجز عن تسديد ديونه.

ونهى الإسلام أن يقول الرجل هذا عبدي وهذه أمتي، بل يقول: هذا فتاي وهذه فتاتي وبهذه التسمية وردت تسميتهم في القرآن[1].

وروي أن رسول الله خاطب أبا ذرّ الغفاري حين علم أنه عَيّر عبده بأمه الأعجمية: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم وخولكم - أي أتباعكم - فمن كان تحت يده (عبدٌ) فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم» وقد رؤي أبو ذر بعد ذلك يلبس حلة وعلى عبده مثلها.

وقد حضَّ النبي ﷺ على حُسن رعاية الأَمَة فقال: «أَيُّمَا رَجُلٍ كانت له جَارِيَةٌ فَأَدَّبها فَأَحْسَنَ تأديبها وأَعْتَقها وَتَزَوَّجها فَلَهُ أَجْرَانِ»[2].

وفي الفقه الإسلامي أحكام كثيرة تتعلق بحسن معاملة الرقيق ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير منها.

هذا وإن الإسلام جعل عتق الرقيق كفارة لبعض الذنوب:

ففي قتل المؤمن خطأ، أو كان المقتول خطأ غير مؤمن وبينه وبين المسلمين عهد وميثاق فكفارة ذلك تحرير إنسان مؤمن من الرق ودية مُسَلَّمَة إلى أهله.

وفي الحنث باليمين خَيَّر الإسلام المسلم للتكفير عن اليمين بين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير إنسان من الرق ومن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

(١) كما جاء في قوله تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ (النساء: ٢٥).
(٢) رواه البخاري.

وفي يمين الظهار وهو نوع من الطلاق كان شائعاً عند العرب في الجاهلية، فقد كان الرجل يقول لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي ويترتب على ذلك طلاق يوجب حرمة مؤبدة لا رجعة فيه، فجعل الإسلام كفارة ذلك تحرير رقبة من الرق فمن لم يملك رقيقاً فصيام شهرين متتابعين، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً.

كما جعل الإسلام كفارة الإفطار عمداً في شهر رمضان عن طريق اتصال الرجل جنسيًّا بامرأته تحرير إنسان من الرق أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً.

ويقع عتق الرقيق بالوصية بأن يقول السيد لعبده: أنت حر بعد موتي ويسمى ذلك العتق: التدبير، فيصير العبد حرًّا بعد موت سيده ويمتنع على السيد بعد ذلك التصرف فيه.

ومن صور التدبير أن تلد الأمة من سيدها ولداً فتصبح بذلك أم ولد فلا يجوز بيعها وتكمل حريتها بعد موت سيدها.

تَحريمُ البِغَاء

كان البغاء عند العرب قبل الإسلام على عدة وجوه:

منها: أنه كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها (أي حيضها) أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه[1] ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها، فإذا تبين، أصابها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد.

(١) فاستبضعي منه: أي اطلبي منه الجماع لتنالي به الولد فقط.

ومنها: ما كان يفعله بعض النسوة حيث كانت إحداهن تجلس في بيت وتتفق في آن واحد مع عدة رجال على أن ينفقوا عليها ويقضوا منها حاجتهم الجنسية فإذا حملت من سفاح ووضعت وليدها أرسلت إليهم حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت وهذا الولد هو ابنك يا فلان فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها.

ومنها: ما كان يجري بواسطة بعض النسوة المحترفات للبغاء حيث كنّ يضعن على أبواب بيوتهن رايات يعرفن بها وكانوا يدعون القليقيات.

فلما جاء الإسلام حرم كُلّ ذلك، وشرع الزواج المعمول به في نظامه وقرر العقوبة للزاني والزانية كما سبق ذكرها.

ومن صور البغاء التي حرمها الإسلام هو ما كان شائعاً بواسطة الإماء حيث كان أسيادهن يجبرونهن على البغاء طلباً للتكسب من هذا العمل وكان من أبرز الأسياد الذين كانوا يجبرون إماءهم على الزنا هو عبد الله بن أُبيّ وكانت له جاريتان (أي أمتان) إحداهما تسمى معاذة والأخرى مسيكة فكان يجبرهما على الزنا ويضربهما عليه ابتغاء الأجر من زناهما وكسب الولد منهما، فأتت مسيكة إلى النبي ﷺ فشكت ذلك فأنزل الله قوله:

﴿.. وَلا تُكرِهُوا فَتَيَاتِكُم عَلَى البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحيَاةِ الدُّنْيا وَمَنْ يُكْرِهْهُنّ فَإنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣).

الإكراه: هو الإجبار بالقوة. والفتيات هنا المراد بهن: الإماء.

والبغاء: هو زنى المرأة خاصة. والمعنى: لا تجبروا إماءكم على الزنا ﴿إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ والتحصن: الامتناع عن الزنا والتعفف عنه، فإن لم ترد الأمة التحصن لا يصح أن يقال أنها مكرهة على الزنا ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحيَاةِ

الدُّنْيَا﴾ أي لتلتمسوا متاع الدنيا الزائل من رياشها وزينتها وأموالها، والمراد ما تكسبه الأمة من المال فيأخذه منها سيدها.

﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنّ فَإنَّ اللَّه مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾ أي فإن أكرهتموهن على الزنا فإن الله غفور لمن أكرهتموهن والإثم يقع على من أكرههن وإن الله سيقبل توبة التائب منهم.

والإكراه في الإسلام لا يؤاخذ عليه الإنسان، فقد رُوي عن رسول الله ﷺ: «رُفع عن أُمتي الخطأ والنسيان وما اسْتُكْرهوا عليه».

فالآية القرآنية لا ترمي إلى منع الأسياد من إكراه إمائهم على البغاء فحسب بل تريد أن تقرر أن احتراف البغاء محرم في الإسلام.

والرسول ﷺ نهى عن مهر البغي، كما روي عنه قوله: مهر البغي خبيث، ثم يعقب الله قوله على آية تحريم البغاء:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إلَيْكُم آيَاتٍ مُبيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤).

أي ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات من القرآن واضحات مفصلات الحق من الباطل ﴿وَمَثَلاً مِنَ الّذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم﴾ وخبراً عن الأمم الماضية وما حلَّ بهم من عقاب بسبب ظلمهم وعصيانهم أمر ربهم ﴿وَمَوْعِظَةً للمتقين﴾ وموعظة وعبرة للذين يتقون غضب الله باتباع أوامره.

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ
يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ
أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)
رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ
اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ
حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ
مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

شـرح المفـردات

مشكاة: كوة في الحائط غير نافذة.

كوكب دُرّي: كوكب مضيء مشرق منسوب إلى الدر (اللؤلؤ).

مباركة: كثيرة المنافع

يضرب الله الأمثال: يبين للناس الأشباه والأمثال

بيوت: أي المساجد

LAU LIBRA

أذِنَ الله: أي أمر الله

أن تُرفع: أن تبنى وتعظم

يسبّح: يصلي

الغدوّ والآصال: أول النهار وآخره.

تتقلَّبُ فيه القلوب والأبصار: تقع في حيرة واضطراب من شدة الفزع.

السراب: هو ما يتراءى في الأرض المنبسطة عند اشتداد الحر ويبدو كأنه ماء.

القيعة: منبسط من الأرض (فلاة).

فوفَّاه حِسَابَهُ: جازاه على أعماله في الدنيا.

بحر لُجّي: بحر عميق الماء.

* * *

تَمثيل لِلقُدْرَةِ الإلَهيَّة وأثرُهَا في الكوْن

وبعد الكلام عن التشريع القرآني في محيط الأسرة الذي يحفظ المجتمع من الزلل والانهيار الخلقي انتقل القرآن إلى الكلام عن شمول قدرة الله في هذا الكون:

﴿اللّه نورُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلَوْ لَم تَمسَسْهُ نارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدي اللّهُ لِنُوره مَنْ يَشاءُ، وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ وَاللّهُ بِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ﴾ (٣٥).

فالله سبحانه يقول عن نفسه: ﴿اللّهُ نُور السموات والأرض﴾ والنور هو الضياء الذي تصل به المبصرات إلى مبصراتها بانعكاسه على الشبكة في العين. وكلمة النور حين تضاف إلى الله تعالى يستحيل أن تطلق عليه بهذا المعنى المحسوس، فالله سمى نفسه نوراً من حيث أنه المنوّر للسماوات والأرض وتسميته بذلك لمبالغة فعله.

والله سبحانه يتحدث عن قدرته: ﴿وَجعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور﴾ أي خلق الظلمات والنور، فكيف يمكن أن يكون نوراً كخلقه.

وقد يراد بالنور المعنى المجازي بمعنى المدبر، فهو الذي يدبر شؤون السماوات والأرض ويجري سننهما على مقتضى الحكمة.

وقد يراد بالنور استعارته لمعنى الهداية، فهو سبحانه هدى أهل السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن إلى نور الإيمان بما أنزل من الشرائع على خلقه.

والقرآن الذي أنزله الله لهدى الناس أُطلق عليه لفظ النور كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُم وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُم نُوراً مبيناً﴾ (النساء: ١٧٤).

وقال سبحانه: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنُّور الذي أَنْزَلْنَا﴾ (التغابن: ٨) والنور الذي أنزله هو القرآن الذي هو هُدًى للناس[١].

وجاء في القرآن: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذين آمنوا يُخرجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور﴾ (البقرة: ٢٥٧) والظلمات كما جاء في تفسيرها هي الضلالة، والنور هو الهدى.

ومجمل القول: فالله مُنَوِّرُ السماوات بالشمس والقمر والنجوم ومُدَبِّرٌ لشؤونهم، وهو سبحانه مُنَوِّرُ الأرض بالشرائع التي تهدي الناس إلى الصراط المستقيم.

وما أروع دعاء رسول الله عندما آذاه أهل الطائف، حين قال: «أعوذ

(١) جاء في القرآن ﴿ذلك الكتاب (أي القرآن) لا ريب فيه هدى للمتقين﴾.

LAU LIBRA

بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك».

وهذا ما فهمه صحابة رسول الله. فعن ابن عباس قوله في تفسير ﴿الله نور السموات والأرض﴾ الله سبحانه هادي أهل السماوات والأرض. ويقول أنس بن مالك: إن إلَهي يقول: نوري هُداي.

ثم يمثل الله هداه في قلوب المؤمنين: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي صفة نوره ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ والمشكاة هي الكوة الصغيرة في الحائط التي لا منفذ فيها يوضع فيها المصباح، والمصباح هو الفتيل موقداً أي السراج ﴿المِصْبَاحُ في زُجاجَةٍ﴾ وهذا السراج الموقد موضوع في قنديل من الزجاج الشفاف الصافي ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[١] وزجاجة هذا المصباح تتلألأ بالنور كأنها كوكب مضي متلألىء من دراري الكواكب.

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي يوقد هذا المصباح من زيت شجرة مباركة من شجر الزيتون.

﴿لا شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّة﴾ الشجرة الشرقية هي التي تصيبها الشمس إذا أشرقت ولا تصيبها إذا غربت، والغربية هي التي تصيبها الشمس إذا غربت ولا تصيبها إذا أشرقت لفاصل من ظل يحجبها عن الشمس وقت الشروق أو الغروب كأن تكون الشجرة على حافة جبل. فهذه الشجرة لا شرقية فتحرم نور الشمس وحرارتها آخر النهار ولا هي غربية فتحرم من الشمس أول النهار بل هذه الشجرة شرقية وغربية فهي على قمة جبل أو في فضاء الأرض تفيد

(١) الدُّرُّ: اللآلىء العظيمة والدراري من الكواكب هي المشاهير كالمشتري والزهرة والمريخ.

من الشمس في جميع أجزاء النهار، وشجرة هذا شأنها يكون زيتها أصفى الزيوت وأجودها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يكاد زيت هذه الشجرة لصفائه وجودته يضيء بغير احتراق وبغير مساس نار ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فهو نور متضاعف من غير تحديد فنوره أقوى ما يكون.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يوفق الله لاستقبال نور هدايته من يشاء من عباده وهم الذين تفتحت قلوبهم لهدايته.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ والله يقدم الأمثلة المحسوسة ليسهل إدراك الأمور المعقولة ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه يعلم أحوال الناس ويرشدهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم.

وإننا نرى في هذا التصوير القرآني من إبراز النور في أكمل وجه ممثلاً له في المصباح الموضوع في كوة في حائط التي تعكس الضوء فتزيد في قوة النور، وكذلك جعل السراج في زجاجة مما يزيد في لمعانه وصفائه[1]، ووصفت الزجاجة بأنها كالكوكب المتلألىء المتألق الذي يتموج شعاعه، وهذا المصباح مادته من أجود الزيوت، ويختم الله قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فهو تصوير لهداية الله فإنك من أي النواحي أتيتها وجدت نورها ظاهراً، وهو نور متضاعف يبهرك كلما نظرت إليه.

---

(١) إذا علمنا أن هذه الحقيقة أعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً ـ وقت نزول القرآن ـ حيث ما كان يعرف حصر المصباح في زجاجة تحيط به ليصفو ضوؤه ويخلو من الدخان، وإذا علمنا أن اختراع الزجاج المحيط بالفتيلة قريب ليس بالبعيد آمنّا بأن هذا الكلام هو كلام الله.

ثَناءٌ عَلى عِبادَةِ المؤمنين

وبعد أن بيّن الله تعالى أنه يهدي لنوره من يشاء من عباده ذكر بعد ذلك صفات المؤمنين الذين حصلت لهم الهداية بذلك النور الإلٓهي:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٦ ـ ٣٨).

فالبيوت التي أذن الله (أي أمر الله) أن تُرفع، قيل: هي المساجد التي بنيت لعبادة الله وهو قول أكثر المفسرين. والمراد بالرفع في الآية هو الرفع المعنوي بمعنى أن تُعظَّم وتكرم وتطهر من الأنجاس والمعاصي واللغو من الأقوال، وقيل المراد برفعها: بناء المساجد. وقد بين رسول الله ثواب ذلك بقوله: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»[1].

وقد تشمل المساجد بيوت كل المؤمنين التي تقام فيها الصلوات ويُذكر فيها اسم الله بالتعظيم والتقديس وتُتلى فيها آيات القرآن، فهذه البيوت يُعلي الله من قدرها ويرفع من شأنها ويخص ساكنيها بفضله ورحمته.

وعودة إلى المساجد فقد أمر رسول الله ﷺ أن تنظف المساجد وتُطَيَّب، كما أمر بأن تجنب المساجد دخول ذوي الروائح الكريهة لما في ذلك من إيذاء العابدين فقد رُوي عنه قوله: من أكل الثوم والبصل والكرُّاث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[2].

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

ونهى رسول الله ﷺ عن البيع والشراء في المسجد فقال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك»(١).

كما روي عن رسول الله قوله: «جنّبوا المساجد صبيانكم(٢) ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسلّ سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر(٣) وجمّروها(٤) في الجُمَع»(٥).

وفي النهي عن رفع الأصوات أيضاً في المسجد يقول رسول الله ﷺ: «إن المصلي يناجي ربه فلينظر بِمَ يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن»(٦).

وقد بيّن رسول الله ﷺ ثواب الصلاة في المسجد فقال: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف (أي تزيد) على صلاته في بيته وفي سوقه خمسة وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلاّ رُفعت له بها درجة وحُطّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه(٧) ما دام في مُصلاّه: اللّهم صل

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) تجنيب الصبيان للمساجد لأنهم يلعبون بها ويشوشون على المصلين صلاتهم واستماعهم لخطبة الجمعة، أما إذا تجاوز الصبي حد الطفولة وكان بإشراف والده ورقابته ويعلم آداب المسجد وآداب الاستماع إلى خطبة الجمعة فلا بأس في حضوره إلى المسجد لكي يعتاد على الصلاة وينشّأ نشأة صالحة، هذا مع العلم أن صلاة الجمعة لا تجب إلاّ على من صار في سن البلوغ.

(٣) المطاهر: هي المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة.

(٤) جمروها: بخروها بالطيب.

(٥) رواه ابن ماجه.

(٦) رواه الإمام أحمد.

(٧) الصلاة من الملائكة للإنسان هي الاستغفار له والصلاة من الله هي الرحمة له.

عليه، اللّهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة(١).

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ التسبيح هو تمجيد الله وتنزيهه عن النقص. وفُسِّر التسبيح بالصلاة لاشتمال الصلاة عليه، ولهذا يقول ابن عباس: كل تسبيح ورد في القرآن هو الصلاة. والغدو: جمع غداة وهي أول النهار ما بين الفجر وطلوع الشمس. والآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار. وإفراد طرفي النهار بالذكر لقيامهما مقام كل النهار وهو ما يقع فيه الاشتغال بالأعمال الدنيوية والقيام بواجب العبادة التي تشمل الصلوات الخمس.

﴿رِجَالٌ لا تُلْهيهم تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رجالٌ: فاعل يسبح، أي هؤلاء الرجال يصلون لله ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، والتجارة تشمل البيع والشراء ولكنه ذكر البيع لأنه أكثر إلهاءً عن غيره، والربح الحاصل بالبيع متيقن بخلاف الشراء الذي يعتريه الشك في الربح ﴿وَإِقَامِ الصَّلاَةِ﴾ كما لا يلهيهم عائق عن إقامة الصلاة في مواقيتها من غير تأخير ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي ولا يشغلهم شاغل عن إعطاء المال الذي فُرِض عليهم إخراجه للمستحقين من عباد الله ﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾ واليوم الذي يخافون منه المراد به يوم القيامة الذي ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ وَتَقَلُّب القلوب هو قلقها واضطرابها من الهول والفزع يوم القيامة، وتقلب الأبصار هو شخوصها من أهواله ومن الفزع الذي يصيب الأنفس.

﴿لِيَجزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ ليجزيهم: اللام للعاقبة والصيرورة، أي إن مآل أمرهم وعاقبته الجزاء الحسن، فيجازون على كل عمل حسن ولا يجازون على ما سبق من العمل القبيح قبل إسلامهم، ويزيدهم الله في

---

(١) متفق عليه.

الثواب: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَيَزِيدَهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يتفضل عليهم بأشياء لم يعدهم بها، ولم يخطر ببالهم كيفياتها.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تنبيه بأن اشتغالهم بالتجارة مع عدم نسيان الله وعدم إهمال الصلوات سبب لوفرة الرزق، لأن الله وحده هو الرزاق، وهو الذي بيده خزائن السماوات والأرض فمن اشتغل بطاعة الله وقام بواجباته نحوه بجانب السعي في تحصيل الرزق فالله لا يحرمه من فضله.

خَيْبَةُ الكفَّارِ في الدنيا والآخرة

وبعد أن وصف الله حال المؤمنين في الدنيا وفوزهم بالنعيم الدائم في الآخرة أعقب على ذلك وصف حال الكافرين حيث يكونون في الآخرة في أشد الخسران وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات معطياً لكل من ذلك مثلاً. فالمثال على خيبتهم في الآخرة قوله تعالى:

﴿والَّذِين كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ مَاءً حَتَّى إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ (٣٩).

فالذين كفروا يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات هي مفيدة في نظرهم تجلب لهم الخير ولكن في حقيقة الأمر ليسوا على شيء مما يجديهم نفعاً عند خالقهم، فأعمالهم في حقيقة الأمر هي ﴿كَسَرابٍ بقيعَةٍ﴾ والسراب[1] هو ما يتراءى للناظر أنه ماء وليس كذلك، والقيعة: هي الأرض

(١) السراب: هو مجرد ظاهرة وهمية سببها انعكاس أشعة الشمس وارتدادها من سطح أرض فسيحة حين ترتفع درجة الحرارة أثناء النهار فيتراءى للناظر بحيرة من الماء، وهي تشاهد عادة في الصحارى والمناطق المنبسطة والطرق الصحراوية المعبدة بالأسفلت.

المستوية المتسعة المنبسطة ومنها يكون السراب ﴿يَحْسَبُهُ الظمآنُ مَاءً﴾ أي فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء قصده ليروي عطشه فلما انتهى إليه لم يجد ماءً ﴿حَتّى إذَا جَاءَهُ لم يَجِدْه شَيئاً﴾ فكذلك الكافر يحسب أنه عمل في دنياه عملاً ينفعه في الآخرة فإذا أقبل على ربه يوم القيامة وحاسبه على أعماله لم يجد شيئاً من عمله قد قُبل إما لعدم الإخلاص أو لعدم العمل بشريعة الله، فأعماله كالسراب يحسبها نافعة له ولكنها لا شيء فهي وَهْمٌ في وَهْم لا تجديه نفعاً ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ أي وجد حكمه تعالى وقضاءه العادل ﴿فَوفَّاه حِسَابه﴾ أعطاه جزاءه وافياً من العقاب الذي توعّده به ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ فالله عالم بكل أعمال الخلق لا يحتاج إلى زمن للفصل في الأحكام بل حكمه سريع ناجز ليس فيه تأخير ولا بطء.

ويتابع القرآن فيصور حال الكافرين وتخبطهم في الضلال في الدنيا:

﴿أو كَظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

فهذه الآية تصور تعامي الكفار عن نور الله وهدايته فهم في ظلمات تشبه ظلمات ﴿بَحْرٍ لُجيٍّ﴾ أي بحر كثير الماء عميقه ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ أي يستره ويغطيه موج ﴿مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي من فوق ذلك الموج موج آخر ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي من فوق ذلك الموج السطحي سحاب يستر أضواء القمر والنجوم ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها على بعض وهذا بيان لشدة الظلمات ﴿إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ وفي وسط هذه الظلمات يكاد راكب البحر أن لا يرى يده لو نظر إليها ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ كذلك الكافرون لا يخرجون من

عمايتهم وضلالهم إلّا بنور الإيمان، ومن لم يوفقه الله لنور الإيمان فليس له نور يهديه إلى الخير.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ فهذه الآية تشير إلى الأمواج الداخلية والسطحية التي تحصل في المحيطات «فأضخم أمواج المحيط وأشدها رعباً هي أمواج غير منظورة تتحرك في خطوط سيرها الغامضة بعيداً في أعماق البحر.. وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات إلى القطب الشمالي كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى «بالماءِ الميت» والذي عرف الآن أنه أمواج داخلية. وفي أوائل عام ١٩٠٠ لفت الأنظار كثير من مساحي البحار الإسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء.. والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التي ترتفع وتهبط بعيداً أسفل السطح فإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط قد أصبح أمراً معروفاً جداً فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقة كما تعمل شقيقاتها الأمواج السطحية على قذف السفن، ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج وبتيارات أخرى قوية في بحر عميق..»[1].

فقوله تعالى ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ إشارة إلى الأمواج الداخلية والسطحية ويؤيد هذا ما وصفه القرآن للبحر بأنه (لجيّ) أي كثير الماء عميقه، وفي هذا إشارة إلى المحيطات لا إلى الشواطىء. ومن المعلوم أن البحر المحيط القريب من القطب الشمالي يقل به وهج الشمس، فما بالك باجتماع السحاب الذي تكثر فيه الظلمة ويصبح الوضع كما وصفه القرآن: ﴿إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا﴾.

فما وصفه القرآن ينطبق على البحر المحيط أصدق وصف، وليس له علاقة بالوسط الجغرافي الذي عاش فيه رسول الله محمد ﷺ، فلو افترضنا أن محمداً رأى في شبابه منظر البحر فلن يعدو رؤية شواطىء البحر الأحمر المتاخمة لأراضي جزيرة العرب. فالوصف الذي جاء به القرآن المطابق للبحر المحيط آية على كونه وحياً إلٰهياً وبرهاناً واضحاً على صدق نبوة محمد ﷺ.

(١) عن كتاب «البحر المحيط بنا» تأليف راشل ل. كارسون.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ
صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ
ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن
جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ
يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن
مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم
مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾
لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

شرح المفردات

والطير صافات: باسطات أجنحتهن في الهواء دون حركة.

يُزجي سَحَاباً: يدفع السحاب ويسوقه برفق.

يُؤَلِّفُ بينه: يجمع بعضه على بعض.

يجعله رُكَاماً: أي يجعل بعضه فوق بعض.

الوَدْق: المطر.

سَنَا بَرْقه: ضوء البرق.

يقلّب الله الليلَ والنّهارَ: يغير أحوالهما من قصر أو طول ونور أو ظلام.

رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ للكون

ثم تنتقل بنا الآيات إلى بيان تفرد الله بالوجود والخلق:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السماوات والأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسبِيحَهُ واللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ. وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ المصيرُ﴾ (٤١ - ٤٢).

التسبيح لله: هو تمجيده وتعظيمه وتنزيهه عن النقص والسوء وعن كل ما لا ينبغي أن يوصف به، وقد يكون بمعنى الصلاة له وذكره وحمده.

فالله سبحانه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ من في السموات والأرض﴾ أي أن الله يمجّده ويعظّمه ويصلي له من هو مستقرٌّ في السموات والأرض من العقلاء كالملائكة والجن والإنس، وغير العقلاء كالحيوان والطير والجماد. وتسبيح الطير ما يسمع من تغريدها وأصواتها وإن كنا لا ندري كنه تسبيحها وعبادتها لله، أما الجماد فما يشاهد من آثار الصنعة الإلّهية فيها الناطقة باتصافه سبحانه بصفات الجلال والكمال وتنزهه عن صفات النقص، كما أن في الجماد أسراراً[1] قد تكون مظهراً من مظاهر العبادة للخالق.

---

(١) الجماد يحتوي على عناصر كثيرة تقارب المائة مثل الحديد والفوسفور والهيدروجين وغيرها وهي موجودة في الأجرام السماوية والأرض. وكل عنصر من هذه العناصر مكونة من ذرات وكل ذرة تحتوي على البروتون والنيوترون ويطلق عليهما نواة الذرة يضاف إليهما عنصر ثالث هو الإلكترون الذي يدور حول نواة الذرة. وهذا النظام في الذرة يشبه النظام الشمسي، فنواة الذرة تقابلها الشمس، والإلكترون الذي يدور حول نواة الذرة يقابله الكواكب السيارة. كذلك بينت الدراسات العلمية أن مجموعتنا النجمية وغيرها تدور ببطء حول محورها المركزي فهل هذه الحركة الدائمة في الكون هي نوع من التسبيح والتقديس لله قد يكون ذلك والله أعلم والله سبحانه يقول: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ والمسلمون في طوافهم حول الكعبة يشاركون الكون كله في عبادة الله، ويشبهون الذرة في حركاتها.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ وكل المخلوقات أرشدها الله وألهمها لعبادته وتمجيده بصلاة خاصة بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ والله سبحانه عالم أتم العلم بصلاة كل مصلّ وتسبيح كل مسبح له.

وإذا كان كل شيء في الوجود يقدس الله ويصلي له فمن الجحود والكفران أن يغفل الإنسان عن ذكر ربه وبالأخص أنه سبحانه خصه بالنعم التي لا تحصى وفضّله على كثير ممن خلق.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ والله سبحانه المالك لما في السموات والأرض، الحاكم المتصرف فيهما، الإلّه المعبود الذي لا تنبغي أن تكون العبادة إلّا له سبحانه ﴿وَإِلَى اللَّهِ المَصِيرُ﴾ وكل الخلق راجع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالهم.

ويتابع القرآن الكلام عن القدرة الإلّهية المتمثلة في تكوين السحاب، ونزول المطر، وعواصف الرعد، واختلاف الليل والنهار:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ. يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأولي الأَبْصَارِ﴾ (٤٣).

تسبق هذه الآية في السحاب ركاب العلم فإنها تتناول مراحل تكوين السحب الركامية، أي المتراكمة بعضها فوق بعض وخصائصها.

فالله سبحانه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً﴾ أي ألم تعلم أن الله يدفع السحاب لينساق برفق إلى حيث يشاء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ ثم يجمع بين أجزائه. وتأليف السحاب هو إعداده بطريقة ما للاجتماع بواسطة الرياح إما

سحاب من صنف واحد في كل سحابة منه دقائق مائية بحالتين متضادتيْ الكهربائية سالبة وموجبة مختلط بعضها ببعض، أو إعداد كتل سحاب من صنفين أحدهما كتل موجبة التكهرب والثاني كتل سالبة التكهرب. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ ثم يجعل هذا السحاب متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرى الوَدْقَ يَخرجُ مِن خِلالِهِ﴾ أي فترى المطر يخرج من خلال السحاب وذلك من تأثير التجاذب بين التيارات الكهربائية في السحاب، السالبة والموجبة، التي تحول بخار الماء إلى قطرات دقيقة من الماء تكبر شيئاً فشيئاً إلى أن تسقط مطراً.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ من جِبَالٍ فيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ أي والله ينزل من مجموعات السحب المتكاثفة التي تشبه الجبال برداً (أي قطع الماء المتجمدة). إن تشبيه هذه السحب بالجبال معجزة للقرآن، فالسحب الركامية تنمو في الاتجاه الرأسي وترتفع قممها إلى علو ١٥ أو ٢٠ كيلومتراً فتبدو كالجبال الشامخة، ولا يعرف التشابه بين السحب الركامية والجبال إلاّ من يركب طائرة تعلو به فوق السحاب فيراها من فوقه كالجبال، وإذا لم تكن الطائرات في عصر محمد ﷺ فإنه يكون هذا دليلاً على أن القرآن من عند الله.

والآية تقول إن هذه السحب هي وحدها التي تجود بالبَرَد ﴿مِنْ جِبَالٍ فيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ وهذه حقيقة علمية أخرى يعلنها القرآن، وقصة نشوء البَرَد هو أنه بعد أن تتكون نقط المطر تعمل تيارات الهواء الصاعد على حملها إلى مناطق التجمد في ارتفاعات شاهقة تنخفض فيها الحرارة إلى ٤٠ أو ٥٠ درجة تحت الصفر، وتلك مرحلة تتحول فيها نقط المطر إلى ثلج كما تجمع حولها أغشية من بلورات الثلج التي تحولت إلى جليد، وهذه المكونات الثلجية يجتمع بعضها ببعض عن طريق التصادم فتنمو ويزداد حجمها بحيث

LAU LIBRA

لا يقوى الهواء على حملها فتسقط إلى الأرض على شكل البَرَد ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهذا البرد ينزل على قوم فينفعهم أو يضرهم تبعاً لإرادته ولا ينزل على آخرين تبعاً لمشيئته إذ ربما يحول تيار الهواء الصاعد دون نزوله في مكان معين حتى إذا ما ضعف هذا التيار هوى هذا البرد على هيئات زخات.

وهناك حقيقة علمية أخرى ذكرتها الآية وهي أن السحب الركامية هي وحدها التي يمكن أن يتولد منها البرق ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ أي يكاد ضوء البرق الذي في السحاب يذهب بالأبصار من شدة بريقه وزيادة لمعانه.

والبرق ما هو إلاّ شرارة كهربائية هائلة، ولكن ما مصدر هذه الشرارات الكهربائية الهائلة؟ إن مصدرها هو شحنات الكهرباء في نقط الماء التي تكون داخل السحب وكذلك الهواء الذي من حولها، وكذلك فإن في نموّ البَرَدِ داخل السحب يصحبه حتماً انفصال شحنات كهربائية عظمى، وتنشأ عن هذه الشحنات ضغوط كهربائية لا تزال تتراكم وتزداد حتى لا يقوى الهواء على عزلها فيتم التفريغ الكهربائي، وقد يتلاحق حدوث البرق في سلسلة تكاد تكون متصلة (٤٠ تفريغاً في الدقيقة الواحدة) ومن أظهر أضرار البرق الإصابة بالعمى المؤقت ولعلَّ الطيارين هم أكثر الناس تعرضاً لذلك وخصوصاً عند تحليقهم داخل السحب الركامية مما يشكل خطراً على الطيران.

فهذا الوصف الدقيق لهذه العواصف الرعدية وأضرارها آية على صدق نبوه محمد ﷺ.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي يغير الله أحوال الليل والنهار بالطول والقصر والبدء والانتهاء بتعاقبهما وذلك من جراء السنن الإلّهية بدوران

الأرض حول الشمس ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولي الأبصارِ﴾ وإن في هذه الظواهر الكونية لدلائل وعبراً لذوي العقول السليمة الذين يبصرون الحقائق ويؤمنون عن طريقها بالله الخالق كل شيء.

ويتابع القرآن الكلام عن القدرة الإلَهية المتمثلة في مخلوقات الله التي خُلقت من الماء:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُم مَنْ يَمشي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَنْ يَمشي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمشي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾ (٤٥).

فالله خلق كل دابة من ماء، والدابة كل ما دب على الأرض من حيوان وزواحف ﴿فَمِنْهُم مَنْ يَمشي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحيات ﴿وَمِنْهُم مَن يمشي عَلَى رِجْلَينِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَنْ يَمْشي عَلَى أَرْبعٍ﴾ كسائر الحيوانات، ولم يتعرض القرآن لما يمشي على أكثر من أربع لقلته ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشاءُ﴾ من هذه المخلوقات وغيرها من الجمادات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، فكل مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ﴾ الذي يكشف عن سرٍّ من أسرار الحياة أدركه العلماء حديثاً، فعلماء الأحياء يعتقدون أن الحياة بدأت في مياه المحيطات المالحة الأولى، ولكن قليلاً منهم يعتقدون نظرية أن الحياة بدأت في الماء العذب.

والحياة لم تبدأ في الماء فحسب بل يمكننا أن نقول دون أن نحيد كثيراً عن الدقة العلمية: إن الحياة لم تترك الماء قط، فجميع صور الحياة تستمر بفضل البروتوبلازم وتمارس نشاطها داخله. فالبروتوبلازم مادة لزجة معظمها من الماء وهي تعتبر قوام الخلايا الحية وعليها يعتمد النمو والتكاثر وهي تتمتع

بخصائص متعددة حصيلتها الحياة نفسها، وتتألف الوحدة البروتوبلازمية من النواة والحشوة والغشاء البلازمي، فالماء أساسي للبروتوبلازم والبروتوبلازم أساس الحياة. وجسم الإنسان يشتمل على ألف مليار خلية في تقدير العلماء، وكل خلية معظمها من سائل مائي.

وصدق الله إذ قال ﴿واللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ الذي يظهر إعجازاً علمياً للقرآن لم تظهر أسراره إلَّا منذ قريب بعد أن تبحر العلماء في كشف أسرار الخلية، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في موضع آخر من هذه السورة إذ جاء فيه ﴿وَجَعَلْنا مِنْ المَاءِ كُلَّ شيء حَيّ﴾ ثم يعقب القرآن على ذلك بقوله:

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ واللَّهُ يَهْدي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦).

أي لقد أنزلنا أيها الناس هذه الآيات القرآنية الواضحة الدالة على طريق الحق وسبيل الرشاد، والله يرشد من يشاء من خلقه بتوفيقه وهدايته إلى دين الإسلام، ذلك الدين هو الطريق المستقيم الذي يوصل إلى سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن
يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ
قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا
عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

شرح المفردات

يتولّى: يعرض.

مذعنين: مقرين خاضعين.

يَحِيفَ: يظلم ويجور.

جَهْدَ أيمانِهم: غاية قسمهم.

صفاتُ المنافِقين:

ثم يخبرنا القرآن عن بعض تصرفات المنافقين مع رسول الله ﷺ، والمنافقون هم فئة كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر:

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالمؤمنين. وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُونَ. وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَم يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِم وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٧ - ٥٠).

فالمنافقون يقولون: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وبِالرَّسُولِ﴾ أي صدقنا بوحدانية الله وبرسوله محمد، يقولون ذلك من غير يقين ولا إخلاص ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعنا الله ورسوله في أحكام الشرع ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي ثم يُعرض فريق منهم عن طاعة الله ورسوله ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالمؤْمنينَ﴾ فإعراضهم عن طاعة الله ورسوله هو الدليل الأكبر على كذبهم في ادعائهم للإيمان، ورسول الله لا يحكم إلّا بما أنزل الله.

فالمؤمنون الصادقون في إيمانهم توافق أفعالُهم أقوالَهم، وحقيقة إيمانهم يظهر في استجابتهم لشرع الله.

وإني أتساءل هل الدول الإسلامية الحاضرة تسير بموجب تشريعات الإسلام، نقول إن أكثرها تطبق الإسلام في الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث وبعض النواحي الاجتماعية الأخرى بينما تتغافل عن تنفيذ عقوبات الإسلام في القتل والسرقة والزنى والقذف والفساد في الأرض وشرب الخمر، وتسير في قوانينها في هذا الصدد حسب القوانين الغربية التي

تسرف في الحرية الشخصية، هذه الحرية التي جرَّت عليها ويلات كثيرة من كثرة الإجرام والإفراط في السرقة والتعدي على حقوق الغير، بينما الإسلام يجعل حرية الشخص مقيدة بمصلحة الجماعة ولا يسمح بالتعدي عليها بحال من الأحوال.

فنظام الإسلام يقدم الخير للمجتمعات، ولنا مثالٌ في المملكة العربية السعودية التي عندما طبقت نظام العقوبات التي شرعها الإسلام انتفى الإجرام منها كليًّا وانعدمت السرقة وأصبح الفرد فيها آمناً على نفسه وماله. وإني أُذكّر الجميع بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَم يَحْكُم بمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾ (المائدة: ٤٥).

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحَكُم بَيْنَهُمْ﴾ أي ومن أحوال المنافقين أنهم إذا طُلبوا من خصومهم التحاكم أمام رسول الله بمقتضى شرع الله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُونَ﴾ إذا: هي الفجائية، أي فاجأ فريق من المنافقين من دعاهم إلى التحاكم أمام رسول الله بالإعراض إذا عرفوا أن الحق في جانب خصومهم ﴿وَإِنْ يَكُن لَهُمُ الحَقُّ يَأْتوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أما إذا عرفوا أن الحق في جانبهم فهم يأتون إلى رسول الله طائعين خاضعين، وقيل: مسرعين.

هذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يُقال له بِشْر وكانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة، وكان اليهودي يدعوه إلى التحاكم عند النبي، وكان المنافق يدعوه إلى كعب بن الأشرف ويقول: إن محمداً يحيف علينا (أي يجور) وكان المنافق إذا رأى الحق في جانب خصمه دعا إلى غير النبي، وإذا كان له الحق دعاه إلى التحاكم إلى رسول الله ليستوفيه له.

وهذا نمط من النفاق يسري على كثير من الناس الذين لا يبتغون الحق

LAU LIBRA

بل يريدون الاستيلاء على حقوق الغير ظلماً متجاوزين شرع الله وغير عابئين بسخط الله عليهم وحسابه لهم يوم القيامة.

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين بصيغة الذم والتوبيخ: ﴿أَفي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ أي هل سبب إعراضهم عن التحاكم عند رسول الله أنهم مرضى القلوب؟ نعم هذا هو السبب.

فالقلوب كما تُصاب بأمراض عضوية. فهي أيضاً تصاب بأمراض نفسية وتعقيدات شتى تفقدها إنسانيتها ووازع ضميرها فلا يؤثر فيها وعظ ولا ترى للحق سبيلاً إلى نفسها.

﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ أم سبب إعراضهم أنهم شكُّوا في نبوة محمد ﷺ مع ظهور الدلائل على صدقها.

﴿أَمْ يَخَافُونَ أن يحيفَ اللَّهُ عَلَيْهِم وَرَسُولُهُ﴾ والحيف هو الميْل في الحكم إلى أحد الخصمين والجوْر. أي كيف يخافون الظلم من الله ورسوله وهم يعلمون أن رسول الله يحكم بينهم بالعدل وبما أنزل الله من القرآن، والدليل على إقرارهم بعدالة رسول الله أنهم يعرضون عن التحاكم عند رسول الله حين يكونون ظالمين، ويأتون إلى رسول الله مسرعين حين يكونون محقين، فهم في الحقيقة لا يخشون في حكم الله جوْراً ولكنهم لا يريدون الحق ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾ أي لا يخافون أن يظلمهم رسول الله لمعرفتهم بحاله وإنما هم ظالمون لأنهم يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم.

وإذا كان هذا حال المنافقين فإن واجبات الإيمان تستدعي طاعة الله ورسوله التي تؤدي إلى الفوز برضوان الله:

﴿إِنَّما كَانَ قَولَ المؤمنينَ إِذَا دُعوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم أَنْ يَقُولوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ (٥١ ـ ٥٢).

فالمؤمنون الصادقون يقفون موقف السمع والطاعة إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سواء أكان الحق في جانبهم أم بجانب خصومهم، ومن ثَمّ كانوا ﴿هُمُ المفلِحُونَ﴾ أي الفائزون برضا الله لأنهم خضعوا لحكم الله.

ومن يطعِ الله ورسوله في كل أمر ونهي ويخشى الله فلا يرتكب من الأفعال والأقوال ما يغضبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ وتقوى الله هي تجنب عذابه بطاعته وامتثال أوامره وحفظ نفسه عن الآثام ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ وفوزهم يكون بالحياة الطيبة في الدنيا والنعيم في الآخرة.

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم لَئِنْ أَمَرْتَهُم لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُم وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ المبينُ﴾ (٥٣ ـ ٥٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم﴾ أيْمانهم: جمع يمين، وهو الحلف والقَسَم. ومعنى: جهد أيْمانهم: أي بالغوا في القسم إلى أقصاه ومنتهاه ﴿لَئِن أَمَرْتَهُم لَيَخْرُجُنَّ﴾ هنا جواب القسم، والمراد بالخروج هو الخروج للجهاد، أي لئن أمرهم رسول الله بالجهاد لخرجوا إليه ﴿قل لا تُقْسِمُوا﴾ ردٌّ عليهم وتبكيت لهم وكشفٌ لخداعهم ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أي لا تقسموا فأنتم كاذبون في قَسَمكم لأن طاعتكم معروفة بأنها طاعة قولية

لا فعلية، أو بمعنى: ليكن منكم طاعة معروفة بإخلاص القلب ولا حاجة لكم إلى اليمين الكاذبة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إنه تعالى لا تخفى عليه خافية من ظاهر أعمالكم وخافيها وما تبطنونه من الكفر.

﴿قُل[1] أَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي قل لهم يا محمد أطيعوا الله فيما يأمركم به، وأطيعوا الرسول لأنه يأمركم بما أنزل الله ﴿فَإِنَّما عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي فإنما على الرسول ما حُمِّل من تبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُم﴾ وعليكم ما أُمرتم به من طاعة الله ورسوله، والتعبير بالحمل للإشعار بعبء مسؤولية أوامر الله ونواهيه التي تستوجب مجاهدة النفس وتحمّل المشاق في سبيلها ﴿وَإِنْ تُطيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وإن تطيعوا رسول الله تصيبوا الحق ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البلاغُ المبينُ﴾ وما على رسول الله محمد إلّا إبلاغكم ما أمر الله بتبليغه لكم من البلاغ الواضح الظاهر الذي لا يشك أحد في أنه الحق من عند الله.

(١) وقفة قصيرة عند قوله تعالى (قل) هذه اللفظة تشهد أن القرآن وحي إلّهي فلو كان القرآن من تأليف محمد لعدل عن هذا الأسلوب وقال مثلاً: أطيعوا الله وأطيعوني ولكن تخصيص الآية بـ«قل» وتخصيص اسم محمد بلفظ الرسول شاهد على أن هذا الكلام ليس من كلام البشر لأن محمداً ليس يقدّم القرآن من ذاتية نفسه بل يتلو ما يوحي الله إليه.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ
ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

شرح المفردات

ليستخلفنَّهم في الأرض: يجعلهم خلفاء وولاة في الأرض يتصرفون فيها.

وليمكننَّ لهم دينهم: ويثبت ويقوي دين الإسلام.

ارتضى لهم: رضي واختاره لهم.

معجزين: فائتين وهاربين من عذاب الله.

مُعجزةٌ للقرآن

الوَعْدُ الذي تحقّق

وبعد الكلام عن المنافقين ينتقل القرآن إلى تبشير المؤمنين بخلافة الأرض والغَلَبة على كثير من أمم الأرض وهذا وعد تحقق فعلاً بعد فترة وجيزة، وهذا الوعد يتمثل بهذه الآية الكريمة:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهم أَمْناً يَعْبدونني لا يُشرِكون بي شيئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (٥٥).

مكث النبي عشر سنين خائفاً يدعو إلى الله سراً وجهراً، ثم أُمِرَ بالهجرة إلى المدينة فمكث بها وأصحابه خائفين يصبحون في السلاح ويمسون، فقال رجل: أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنا السلاح؟ فقال النبي ﷺ: لن تصبروا إلّا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ[١] العظيم محتبياً[٢] ليس معه حديدة[٣]، وأنزل الله هذه الآية.

فالله وعد رسوله ومن معه من المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال التي أمرهم بها **﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ﴾** أي يجعلهم خلفاء في الأرض يتصرفون فيها بأمره فيكونون فيها أئمة للناس وولاتها ووعد الله ناجز لا محالة وقد ناطه بالإيمان وعمل الصالحات **﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾** كما

(١) الملأ: الجماعة، وتطلق على أشراف القوم.

(٢) محتبياً: جالساً على أليتيه ضاماً فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.

(٣) حديدة: قطعة سلاح.

فعل سبحانه ببني إسرائيل حين أورثهم أرض مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة من قوم فرعون وغيرهم ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُمُ الذي ارتضَى لَهُم﴾ أي وليجعلن دين الإسلام راسخاً قوياً ثابت القدم ﴿وَلَيُبَدلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً﴾ وليغيرنَّ حال المسلمين مما هم عليه من خوف إلى أمن ﴿يَعْبُدونني لا يُشْركون بي شَيئاً﴾ هذا ما اشترطه الله لاستخلافهم في الأرض وهو جزاء إخلاصهم لله في العبادة: أنهم لا يشركون بعبادته أحداً من خلقه ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ ومن كفر وجحد هذه النعم أو ترك العمل بدين الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله ومرضاته.

هذا الوعد الإلَهي تحقق بعد مدة وجيزة، فإن النبي ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، والمقوقس عظيم مصر، والنجاشي ملك الحبشة.

ثم لما توفي رسول الله ﷺ قام بالأمر بعده خلفاؤه ففتحوا بلاد فارس والعراق والمغرب والأندلس والروم، كما امتد الزحف الإسلامي إلى أقصى بلاد الصين وحدود فرنسا.

وليست هذه الآية التي نحن في صددها هي الوحيدة التي تبشر المؤمنين بالنصر ففي القرآن آيات كثيرة في هذا المعنى نذكر منها:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبادِنا المُرْسَلِينَ. إنَّهم لَهُمُ المنْصُورونَ. وإنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١ - ١٧٣).

﴿إنَّا لَننصُرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْم يَقُوم الأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١).

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنينَ﴾ (الروم: ٤٧).

هذه الآيات الأخيرة نزلت في مكة حيث كان المسلمون قلة في غاية الضعف يلاقون صنوف الاضطهاد من قريش، ولكن لم تمضِ فترة وجيزة حتى نصر الله المؤمنين واستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم. كل ذلك من الأنباء الغيبية التي تحققت، والتي تشهد أن القرآن وحي إلَهي وأن محمداً ﷺ رسول الله حقاً وصدقاً.

وكلمة أخيرة نقولها بأن الفتوحات التي قام بها المسلمون غايتها إيصال دعوة الإسلام إلى أُمم الأرض وإصلاح الفساد والظلم المستشري فيها.

والرسول ﷺ ومن جاء بعده من قادة المسلمين كانوا قبل أن يغزوا بلاداً يخيِّرون أهلها بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، والجزية هي ضريبة تعادل تقريباً ضريبة الزكاة التي فرضها الله على المسلمين مقابل حمايتهم ومقابل الخدمات التي تؤمنها الدولة الإسلامية لهم.

وواجبات المسلمين بعد النصر تتركز على الأمور الآتية التي أمر الله المسلمين بها:

﴿الذين إنْ مَكَّنَّاهُم[1] في الأَرْض أَقَامُوا الصَّلاةَ، وآتوا الزَّكَاةَ، وأَمَرُوا بالمعرُوفِ، وَنَهوا عَنِ المنْكَرِ..﴾ (الحج: ٤١).

فليست الغاية من النصر توسعاً في الملك ولا وضع اليد على موارد الثروات ولا علوًّا ولا استكباراً في الأرض ولا إذلال العباد، ولكن المؤمنين إن انتصروا حققوا الأمور الآتية ﴿أقامُوا الصَّلاةَ﴾ أي أنهم توجهوا إلى السمو الروحي من عبادة الله وتطهير أنفسهم من الفواحش والمنكرات ﴿وآتوا الزَّكَاةَ﴾ أي حققوا العدالة الاجتماعية من إعطاء المحتاجين حقهم في هذه الحياة ﴿وَأَمَرُوا بالمعْرُوفِ﴾ أي أشاعوا الخير والحق بين الناس ﴿وَنَهوْا عَنِ

(١) مكناهم: يقال مكّن فلان في الشيء جعله متسلطاً عليه يتصرف فيه وتنطلق يده فيه.

المنْكَرِ﴾ أي حاربوا الشر والفساد واستأصلوهما من المجتمع.

وبعد أن وعد الله المؤمنين بخلافة الأرض دعاهم إلى طاعة رسوله:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. لا تَحْسَبَنَّ الَّذِين كَفَروا مُعْجِزِينَ في الأَرْضِ وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ﴾.

فالله سبحانه يأمر المسلمين بإقامة الصلاة، وإقامتها هو الإتيان بها إتياناً كاملاً من توفية أركانها وشروطها مع الخشوع والإخلاص لله والمحافظة عليها في مواعيدها وعدم التقصير بها ﴿وآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأعطوا الزكاة للمستحقين لها. والزكاة هي الصدقة المفروضة على الموسرين للطبقة الفقيرة، والزكاة تقوي الأواصر بين المؤمنين وتطهر الأنفس من رذيلة الشح، وتحفظ المجتمع من القلاقل والفتن والصراعات والإجرام التي يثيرها الفقر والحاجة ﴿وأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وأطيعوا رسول الله محمد في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ ليكون لكم رجاء في رحمة الله ورضوانه، ومفهوم ذلك أن الصلاة والزكاة وطاعة الرسول مدخل لنيل رحمة الله، ومن رَحِمَهُ الله فقد يسر أموره وأحياه حياة طيبة. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فيجنبه عذاب جهنم ويدخله دار النعيم.

﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِين كَفَرُوا مُعْجِزِينَ في الأَرْضِ﴾ الإعجاز: الفوْت والسبق عن أن تلحق بهم قدرته تعالى والهرب من وصول أثرها إليهم، أي لا تظنن يا محمد أن الكافرين سيُعجزون الله عن طلبهم وإدراكهم، وهم مهما ذهبوا في الأرض فهم في دائرة سلطانه، ففي هذه الآية إزاحة لخوف المؤمنين الناشىء من استعظام شأن أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم كثرة في العدد والعتاد فجاءت هذه الآية مزيلة لهذا الهاجس من أذهانهم ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ والمكان الذي سينزلون فيه يوم القيامة هو النار ﴿وَلَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ وبئس هذا المكان الذي ينتهون إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ
ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ
وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ
جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ
ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا
فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

شرح المفردات

لم يَبْلُغوا الحُلُمَ: لم يصلوا إلى سن البلوغ والرجولة.
عورات: جمع عورة وهي كل ما يستره الإنسان من أعضائه أنفة وحياء.
طوّافون عليكم: كثيرو التردد عليكم.
القواعد: وهي المرأة الكبيرة المسنّة التي انقطعت عن الأزواج والحيض والولد.
التبرّج: إظهار زينة المرأة للأجانب والخروج عن الحشمة.

أحكَامُ الاستئذان دَاخل الأسرة

سبق أن ذكرنا أن القرآن أمر المؤمنين بأن لا يدخلوا بيوتاً حتى يطلبوا الإذن من أصحابها. وهنا يفصل القرآن بعض النواحي التي لها تعلق بالاستئذان داخل الأسرة والتي تتمثل من ناحية المماليك والأطفال، وذلك أن اندماج المماليك أو الخدم في خدمة أسيادهم وكذلك الصبيان قد يتجاوز بهم الاحتشام في المخالطة فيدخلون على أفراد الأسرة بدون استئذان في أوقات هي مظنّة للتعري من اللباس. لذا أمر الله المؤمنين بأن يوصوا مماليكهم وأطفالهم بأن لا يدخلوا عليهم بدون استئذان في الأوقات الآتية:

﴿يا أيُّهَا الّذين آمَنُوا لِيَسْتَأذِنكُمُ الّذين مَلَكَتْ أيمانُكم وَالّذِينَ لَمْ يَبْلُغوا الْحُلُمَ مِنْكُم ثلاث مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشَاءِ ثلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيسَ عَلَيْكُم وَلا عَلَيْهِم جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَإذا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الّذين مِنْ قَبْلِهِم كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿لِيَسْتَأذِنكُمُ﴾ أي ليطلب الإذن منكم قبل الدخول عليكم ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ﴾ أي ما تحت أيديكم من العبيد والإماء ﴿وَالَّذين لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ﴾[١] أي وليطلب الإذن منكم صبيانكم الذين لم

(١) الحلم: هو بلوغ سن الرجولة، والبلوغ من الصبي يكون بالاحتلام، والاحتلام هو خروج المني سواء في اليقظة أو المنام، ولما كان في الغالب لا يحصل إلّا في النوم بحلم أُطلق عليه الحلم والاحتلام. وعلامة البلوغ في الأنثى مجيء الحيض لها. وأكثر الفقهاء يقولون: إذا بلغ الصغير خمس عشرة سنة ولم يحتلم فهو بالغ حكماً وكذلك البنت، أما الإمام أبو حنيفة فيجعل السن ثماني عشرة سنة للغلام وللبنت سبع عشرة سنة.

يدركوا سن البلوغ ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ وهذا الإذن مقيد بثلاثة أوقات ﴿مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ﴾ فقبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع وخلع ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أي وحين تخلعون ثيابكم وقت الظهيرة، وهو وقت اشتداد الحر في منتصف النهار فإن الإنسان يخفف كثيراً من ملابسه وبالأخص في المناطق الحارة كمنطقة جزيرة العرب ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاَةِ العِشَاءِ﴾ وفي هذا الوقت يخلع الإنسان ثياب العمل ويلبس لباس النوم، أو ينام مع زوجته في سرير واحد ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ وعورة الرجل والمرأة سوءاتهما، وكل أمر يُستحيا منه فهو عورة، والعورة تطلق على الخلل، أي في هذه الأوقات الثلاث يختل تستركم وتحفظكم، فقد يُقَبِّلُ الرجل منكم زوجته أو يعانقها وقد ينكشف من أجسامكما ما تخجلان من ظهوره.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُم ولا عَلَيْهِم جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي ليس عليكم معشر أرباب البيوت ولا على مماليككم وصبيانكم الصغار إثم في الدخول عليكم بدون إذن في غير هذه الأوقات الثلاثة ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُم عَلَى بَعْضٍ﴾ أي يحومون حولكم ويكثرون من الدخول عليكم ويتردد بعضكم على بعض، فلو فرض الاستئذان في كل الأوقات لأدى إلى التضييق عليكم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّه لَكُمُ الآياتِ﴾ وبمثل هذا التوضيح يوضح الله لكم آيات القرآن لبيان الأحكام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه يعلم ما يصلح لعباده عظيم الحكمة فيما يشرِّعُهُ لهم من الأحكام والآداب.

﴿وَإذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ﴾ وإذا وصل أطفالكم إلى سن البلوغ ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كمَا اسْتَأْذَنَ الَّذين مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي وجب عليهم أن يستأذنوا للدخول عليكم في جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أُمروا بالاستئذان من غير استثناء ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ﴾ وهكذا

يبين الله لكم أحكامه وشرائع دينه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بما يصلح خلقه بالغ الحكمة فيما يشرِّعه لهم من الأحكام.

وبعد أن أمر الله المؤمنين بأن يطلبوا من مماليكهم وأطفالهم الاستئذان قبل الدخول عليهم في أوقات ثلاثة قد تنكشف فيها العورات، بيَّن بعد ذلك حكم المرأة المسنّة في تسترها أمام الغرباء:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٠).

القواعد: جمع قاعد وهي المرأة الكبيرة المسنّة التي انقطع عنها الحيض ولا تلد ﴿لا يرجون نكاحاً﴾ لا يطمعن في الأزواج لموت شهوتهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ فليس عليهن إثم ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أن ينزعن بعض ثيابهن الخارجية بين يدي الرجال الأجانب(١)، والثياب التي أُبيح لهن أن ينزعنها هي القناع(٢) فوق الخمار الذي يوضع على الرأس. والجلباب(٣) والرداء(٤) في بيتها على شرط أن لا تنكشف عورتها، وهذا من باب اليسر

---

(١) قال القرطبي: «قال قوم: الكبيرة التي أيست من النكاح لو بدا شعرها فلا بأس فعلى هذا يجوز لها نزع الخمار، والصحيح أنها كالشابة في التستر». وجاء في أحكام القرآن للجصاص: «لا خلاف في أن شعر العجوز عورة لا يجوز للأجنبي النظر إليه كشعر الشابة، وأنها إن صلت مكشوفة الرأس كانت كالشابة في فساد صلاتها».

والیوم نرى الشابات والعجائز يصبغن شعرهن ويتفنن في تصفيفه مما يزيد من حسنهن ويلفت الأنظار لهن، لذلك ندرك الحكمة من النهي عن كشف شعرهن أمام الرجال الأجانب صوناً لهن من كل ما يمس بطهارتهن وعفتهن أو إلحاق الأذى بهن.

(٢) القناع: غطاء الرأس.

(٣) الجلباب: الملاءة أو الثوب السابغ الذي يغطي الجسد كله.

(٤) الرِّداء: الثوب الذي يستر الجزء الأعلى من الجسم.

عليها ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي من غير أن يردن بنزع هذه الثياب الخارجية أن تُرى زينتهن الخفية التي سبق أن نُهي عن إظهارها للرجال الأجانب. والتبرج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي أن تستره، ومن التبرج أن تلبس المرأة ثوباً رقيقاً أو ضيقاً يصف جسمها ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ وأن يتركن نزع ثيابهن الخارجية فهو خير لهن ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميع لقولهن عليم بفعلهن وقصدهن.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا
عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا
مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا
عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم
بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ

شرح المفردات

ما ملكتم مفاتحه: ما كان في تصرفكم من وكالة أو حفظ أموال الغير.

أشتاتاً: متفرقين.

أمر جامع: أمر مهم يجب اجتماعهم له للتشاور أو لتدبير ما يلزم له.

دعاء الرسول: دعوته لكم للاجتماع.

يتسللون: يخرجون خفية.

لواذاً: يتستر بعضهم ببعض.

فتنة: بلاء ومحنة في الدنيا.

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)
أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

توثيق الصلة بين الأقارب والأصدقاء:

ثم يدعو القرآن إلى توثيق الصلة بين الأقارب والأصدقاء عن طريق المؤاكلة عند بعضهم بعضاً:

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ولا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريضِ حَرَجٌ ولا عَلَى أَنفُسِكُم أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُم أَو بُيُوتِ آبائِكُم أو بيوتِ أُمَّهاتِكُم أو بيوتِ إخْوانِكُم أو بُيُوتِ أَخَواتِكُم أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُم أو بُيُوتِ عمَّاتِكُم أو بيوتِ أَخْوالِكُم أو بُيُوت خالاتِكُم أو ما مَلَكْتُم مَفاتِحَهُ أَو صَدِيقِكُم لَيْسَ عَلَيْكُم جُناحٌ أَن تَأْكُلوا جميعاً أو أَشْتاتاً فإذا دخلتم بُيُوتاً فَسلِّموا على أَنْفُسِكُم تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم تَعْقِلونَ﴾ (٦١).

ورد في أسباب نزول هذه الآية عدة روايات نذكر منها:

قيل لما نزلت الآية الكريمة: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ قال المسلمون إن الله تعالى قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل وإن الطعام من أفضل أموالنا ولا يحلُّ لأحد أن يأكل عند أحد فكفَّ الناس عن ذلك فأنزل الله هذه الآية.

وفي رواية أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زَمِناهم (أي ضعفاءهم)

في بيوتهم ودفعوا إليهم المفاتيح وقالوا قد أحللنا لكم أن تأكلوا منها فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وهم غائبون فنزلت هذه الآية رخصة لهم.

وروي في أسباب النزول: أن أهل المدينة كانوا قبل أن يُبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام والمريض لا يستوفي الطعام، كما يستوفي الصحيح، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت الآية رخصة في مؤاكلتهم.

وقيل إن هذه الآية نزلت رخصة للأعمى والأعرج والمريض في ترك الجهاد والتخلف عنه، ويكون الكلام ﴿ولا على أنفسكم﴾ وما بعده كلاماً مستأنفاً خوطب به جميع الناس.

وإني اختار هذه الرواية الأخيرة التي تفسر الآية في شطرها الأول بأنه لا إثم على أصحاب العلل في تخلفهم عن الجهاد، أما في الشطر الثاني فإني أفهم منها بأنها دعوة إلى الترابط العائلي وتوثيق روابط الصداقة عن طريق الطعام. والإنسان كما هو معلوم لا يأكل عند أحد إلّا إذا استضافه واستقبله بترحاب وبشاشة فالآية فيها دعوة للمؤمنين بأن يرحبوا بأقاربهم وأصدقائهم ويدعوهم لمشاركتهم الطعام عن طيب نفس وكرم في الضيافة.

فالله سبحانه يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ولا عَلَى الأعْرجِ حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ﴾ فالحرج هو الإثم، أي لا إثم على هذه الفئات الثلاث في القعود عن الجهاد أو ترك بعض التكاليف الشرعية التي يتعذر عليهم القيام بها لما بهم من عذر ﴿ولا على أنفُسِكُم أن تأكلوا من بيُوتكم﴾ أي وليس عليكم أيها الأصحاء إثم أن تأكلوا من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل في ذلك بيوت الأولاد لأنهم أقرب الطوائف اتصالاً بهم. وقد

روي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إن لي مالاً وولداً وإن والدي يحتاج مالي، قال رسول الله: «أنت ومالُك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم»(١) وكثير من أصحاب رسول الله قالوا إن يد الوالد مبسوطة في مال ولده وقال بعضهم لا يأخذ من ماله إلّا عند الحاجة إليه.

ثم عدد القرآن بيوت الأقرباء التي لا إثم في الأكل عندهم وهي: بيوت الآباء والأمهات والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، وأضاف بعدها ﴿أو مَا مَلَكْتُم مَفَاتِحَهُ﴾ أي البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أصحابها كما إذا كنتم وكلاءهم والقيمين على أرزاقهم والخازنين على أموالهم ﴿أو صَديقكم﴾ أي لا إثم عليكم أن تأكلوا من بيوت أصدقائكم إذا علمتم أن ذلك لا يسوءهم ولا يكرهون ذلك.

لقد قرن الله الصديق بالقرابة المحضة، يقول جعفر الصادق: من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وترك الحشمة بمنزلة النفس والأب والابن والأخ. وفي المثل: «أيهما أحب إليك أخوك أم صديقك» قال: أخي إذا كان صديقي.

ويروى عن ابن عباس قوله: الصديق أوكد (أشد) من القرابة، ألا ترى استغاثة أهل جهنم: ﴿فما لنا مِنْ شَافعين. ولا صَديقٍ حَميم﴾ فلم يستغيثوا بالآباء والأمهات وغيرهم بل يستغيثون بأصدقائهم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي ليس عليكم إثم أن تأكلوا مجتمعين أو تأكلوا منفردين، فقد كان رجال من بعض أحياء العرب لا

(١) رواه أبو داود.

يأكلون طعامهم حتى يجدوا من يشاركهم فيه(١) فرخص لهم القرآن في الأكل كيف شاءوا منفردين أو مجتمعين.

وكلمة أخيرة نقولها: إن نفي الحرج في الأكل من هذه البيوت إنما هو إذا علم أو ظن أن ذلك موضع رضا منهم، فإذا غلب على الظن أن بعض هؤلاء بلغ منه الشح مبلغاً كبيراً بحيث يتأذى من أكل الغير طعامه لم يحل له الأكل عنده لقول الرسول ﷺ: «لا يحل مال أمرىء مسلم إلّا عن طيب نفس منه».

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّموا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي فإذا دخلتم بيوتاً من تلك البيوت التي أذن الله بالأكل فيها فعليكم بأن تبدأوا دخولكم بالسلام على أهل تلك البيوت فهم في المودة ولحمة القرابة بمنزلة أنفسكم، فإذا سلمتم عليهم فكأنما تسلمون على أنفسكم ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ والتحية في كلام العرب ما يحيِّي به الناس بعضهم بعضاً وهي بمعنى السلام، وأصل التحية مأخوذة من قولهم حياك الله أي أبقاك فكأنها طلب الحياة أو طلب صفوها وسعادتها، ومعنى أنها من عند الله أي تحية مشروعة من عند الله ثابتة بأمره ﴿مُبَارَكَةً﴾ مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما ﴿طَيِّبَةً﴾ أي تطيب بها نفس من تحبونه ويستريح لها.

وصيغة السلام التي تلقى على أهل البيوت: السلام عليكم، فإذا لم يكن في البيت أحداً فيقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾ أي هكذا يوضح الله لكم معالم دينكم لتعقلوا ما فيها من العظات والأحكام وتعملوا بها.

---

(١) وقد قال أحدهم لزوجته في ذلك:

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له أكيلاً فإني لست آكله وحدي

الالتزامُ بمَصْلَحَةِ الجمَاعَة

ثم يبين القرآن أن على المسلمين أن يلتقوا حول رسول الله عند كل أمر هام:

﴿إنَّما المؤمنون الَّذين آمنوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ، إِنَّ الَّذِين يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذين يُؤمنون بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِم فَأْذَن لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُم واسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٢).

فالآية ذكرت الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون وحصرتها بأمور ثلاثة: التصديق بوحدانية الله، وبرسول الله محمد، والالتفاف حوله في كل ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي الأمر الداعي للاجتماع، فيشمل الأمور الدينية والدنيوية كالاجتماع لمقاتلة العدو والتشاور عند كل خطب جلل والاستئناس بآراء أهل التجارب والعلم والخبرة فيما يعود بالخير على الأمة. أما في الشؤون الدينية فهو الاجتماع لصلاة الجمعة والعيدين.

فالابتعاد عن الجماعة جناية على المسلمين المجتمعين لخير بلدهم لأنه يفتّ في عضدهم وخصوصاً إذا كان الأمر مما يدعو إلى التساند فيما بينهم في الأمور الدنيوية، كما هو إيذاء لهم في شعورهم في تعظيم الشعائر الدينية واحترامها، وإيذاء لرسول الله الحريص على هداهم وسعادتهم وعلى توحيد صفوف الأمة.

فلا جرم بعد كل ما تقدم أن جعل القرآن الإيمان الكامل منوطاً بالتمسك بالجماعة الإسلامية ومنع الانصراف عنها إلّا بإذن من رسول الله وهي التي ذكرها: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ وإن الذين يستأذنون رسول الله هم المؤمنون حقاً عن عقيدة لا عن نفاق.

ثم أمر الله رسوله إذا استأذنه أحد من المسلمين لبعض أموره الهامة أن يأذن له إن شاء ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِم فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فالاستئذان لا ينبغي أن يكون لكل شأن طرأ بل ينبغي قصره على بعض الشؤون التي فيها ضرورة ما، وإن الإذن وعدم الإذن موكول إلى مشيئة النبي ﷺ التي له فيها رأي صائب وتغليب للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وقد أذن رسول الله لعمر بن الخطاب في الرجوع إلى أهله حين خرج معه في غزوة تبوك وقال له: انطلق فوالله ما أنت بمنافق.

ويختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يفهم من هذا أن الأجدر بالمؤمنين أن يتحاشوا الانصراف عن الجماعة ولو بإذن من رسول الله في الشؤون الشخصية لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، وإن الاستئذان والموافقة عليه من حقه أن يستغفر منه، فاطلب يا محمد المغفرة لهم من الله على انصرافهم الذي ما كان يليق أبداً، إن الله واسع المغفرة والرحمة.

وهذا الحكم وإن كان ينطبق على النبي ﷺ فإن هذا الحكم ينطبق أيضاً على كل من له ولاية عامة على جماعة المسلمين في كل أمر ديني أو دنيوي، بحيث يجب عليهم طاعتهم في ذلك إذا كانوا معه على أمر جامع يجمع المسلمين فليس لأحد أن ينصرف حتى يستأذن منه ويأذن له.

ثم يحذّر الله الذين يخالفون أوامر رسوله محمد ﷺ:

﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ أَو يُصِيبَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣).

أي احرصوا على احترام دعوة الرسول لكم إلى الاجتماع للأمور الهامة

واستجيبوا لها ولا تجعلوها كدعوة بعضكم بعضاً في جواز التهاون بها والانصراف عنها. وقد يكون المعنى: لا تسموا رسول الله إذا دعوتموه يا محمد أو يا ابن عبد الله ولكن وقّروه في ندائكم فقولوا يا نبي الله أو يا رسول الله مع غاية التكريم والتعظيم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِين يَتَسَلَّلُون مِنْكُم لِوَاذاً﴾ فالتسلل: هو الانطلاق في استخفاء، ولواذاً أي تستراً بغيرهم. فهنا وعيد من الله لمن تحدثه نفسه بالانصراف خفية وخلسة مبيناً لهم أنه سبحانه يعلم هؤلاء المتسللين وهم المنافقون الذين كانوا يثقل عليهم المقام في مجلس رسول الله فكان الواحد منهم يختلق عذراً للانصراف فينصرف ثم يتبعه غيره متستراً به. وكان يحصل ذلك عند خطبة يوم الجمعة فينصرفون خفية متسترين بغيرهم من غير استئذان من النبي ﷺ، وقيل: كانوا يتسللون من الصف في القتال.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُون عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي فليحذر من يخالف أمر رسوله الله ومنهاجه وسننه وشريعته، وبمقتضى هذا التحذير الإلّهي فإنه يتوجّب على المؤمنين أن يزنوا أقوالهم وأعمالهم بأقوال النبي ﷺ وأفعاله فما وافق ذلك قُبِلَ وعمل به، وما خالفه فهو مردود على قائله، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ» فليحذر من يخالف شريعة النبي ﷺ ﴿أن تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ﴾ والفتنة التي حذرهم الله من إصابتهم بها هي في الدنيا كالقتل والزلازل وتسلط سلطان جائر عليهم، وقيل الفتنة تأتي بمعنى الكفر، لأن مخالفة منهج رسول الله وبالأخص فيما يتعلق بالعقائد توجب الكفر.

وإننا اليوم في ضوء ما يصيب الأمم الإسلامية من محن ومصائب وتسلط الأعداء عليهم نرى ذلك بسبب مخالفة أوامر رسول الله الذي دعا إلى الوحدة والتكاتف والالتزام بأوامر الله، وعندما خالف المسلمون أوامر رسول الله وتنازعوا فيما بينهم حلت بهم الفتنة التي حذرنا الله منها.

﴿أو يُصِيبَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والعذاب الأليم هو عذاب النار في الآخرة.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «إن بني إسرائيل تفرّقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلّا ملة واحدة، قالوا ومن هي يا رسول الله قال: ما أنا عليه وأصحابي»[1].

ويختم الله هذه السورة ببيان ملكيته لهذا الكون وعلمه بأعمال كل إنسان:

﴿ألا إنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا واللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٤).

فالله له ملك السموات والأرض فلا ينبغي لأي إنسان أن يخالف أمر خالقه فيعصيه فيستوجب بذلك عقوبته ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ﴾ أي يعلم الله ما أنتم عليه أيها الناس من مخالفة أمر الله وأَمر رسوله، وهنا تهديد ووعيد للمنافقين وإدخال لفظ «قد» على العلم لتأكيد علمه ﴿ويوم يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ويوم يرجع إلى الله الذين يخالفون أمره ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ فيخبرهم حينئذ بما عملوا في الدنيا ثم يجازيهم على أفعالهم ﴿واللَّهُ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ﴾ والله ذو علم بكل شيء عملتموه أيها الناس لا يخفى عليه شيء.

هذه الحقيقة إذا وعاها الناس هي من أهم الدوافع لردع الإنسان عن فجوره وظلمه، لأنه مهما عاش فالموت آتيه وسيرجع إلى ربه حيث يجازيه على أفعاله.

(١) رواه الترمذي.

المراجع

جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي
البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي
التفسير الكبير للفخر الرازي
تفسير القرآن لابن كثير
تفسير الكشاف لمحمود بن عمر الزمخشري
تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي
تفسير محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني
صحيح البخارى ـ صحيح مسلم
سنن أبي داود ـ سنن النسائي ـ سنن ابن ماجه ـ سنن الترمذي
أحكام القرآن لابن العربي
أحكام القرآن للجصاص
تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي
تفسير سورة النور لابراهيم الجبالي ـ مجلة نور الإسلام ـ مصر
تفسير سورة النور لمحمد الأباصيري خليفة ـ مجلة الوعي الإسلامي ـ الكويت
قبسات عن سورة النور لمحمود كامل أحمد
وهناك بعض المراجع أوردناها في ثنايا الكتاب.

الفهرس

الموضوعات	صفحة
حد الزنا	١٠
الزنا من كبائر الإثم	١٧
أضرار الزنا في العالم	١٩
الزنا وطهارة الإيمان لا يجتمعان	٢٢
حد القذف	٢٥
اللعان (عند اتهام الزوج زوجته بالزنا)	٢٩
قصة الإفك	٣٤
العبرة من قصة الإفك	٣٩
أحكام الاستئذان	٥١
أحكام غض البصر وحدود زينة المرأة	٥٦
أحكام النظر إلى العورات	٦٣
أحكام الزواج والعفة	٦٧
أحكام في تحرير الأرقاء	٧٢
تحريم البغاء	٧٧
تمثيل للقدرة الإلهية وأثرها في الكون	٨١
ثناء على عبادة المؤمنين	٨٥

خيبة الكفار في الدنيا والآخرة	٨٨
ربوبية الله للكون	٩٢
صفات المنافقين	٩٩
معجزة للقرآن ـ الوعد الذي تحقق	١٠٥
أحكام الاستئذان داخل الأسرة	١١٠
توثيق الصلة بين الأقارب والأصدقاء	١١٥
الالتزام بمصلحة الجماعة	١١٩

كلمة شكر

وفي الختام أُقدم شكري للأساتذة:

الشيخ شريف سكر

مصطفى قصاص

شفيق اللبان

على ما أبدوه لي من معونة وملاحظات قيمة

كما أُقدم شكري **لجامعة بيروت العربية** لما قدمته لي مكتبتها العامرة من خدمات ومراجع قيمة.

سائلاً الله أن يجزيهم خير الجزاء

ويوفقنا سبحانه لخدمة دينه

عفيف طبارة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يسّ
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير ربع يسّ في مجلدين.

هذا التفسير

- يعرضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر .
- يعالج التفسير بطريقةٍ مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة .
- يُبيّن التفسير العلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .
- يعرض التفسير بأسلوبٍ سهل وطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجميع .
- يفسّر المجمل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى.

دراسات إسلامية 2.5 ISBN 9953-9-0537-1

9 789953 905372 2

الموزعون الوحيدون:

دار العلم للملايين

بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥